

## الكتاب الأول

يبدأ الكتاب الأول بمقدمة في دراسة التاريخ، تبين أن ديودور يؤمن إيماناً راسخاً بعقيدة الرواقيين في فائدة دراسة التاريخ العملية، ويقرر فيها أن ليس من أهدافه أن يجعل من تاريخه أداة لتسليّة القارئ، أو تزجية فراغه، أو إشباع شهوة الاطلاع فيه. كان غرضه الأول بيان ما يمكن أن تأخذ به الإنسانية من أنظمة كل بلد، ومن أغراضه ولا شك إذاعة شهرة عظماء الرجال، والتنويه بجلائل أعمالهم، حفزاً للهمم، وحثاً على العمل. ويتحدث بعد ذلك عن منشأ الكائنات الحية، لأن في الأساطير ما يشير إلى أن الكائنات الحية ظهرت أول الأمر في مصر، وكان نشوؤها ذاتياً [١٠، ١]، ولقد ظل هذا الاعتقاد سائداً إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد. ثم يتحدث عن الآلهة، لأن مصر موطنها الأصلي فيما تقول الأساطير [١٠، ٩]، وليس احتفال ديودور بآلهة مصر، ناشئاً عن ولع بمصر أو غرام بالوصول إلى الحقيقة، بل كان محاولة في تفهم الدين المصري على اعتبار أنه أصل الديانة اليونانية، فقد كان ديودور مؤمناً إيماناً عميقاً بالآلهة اليونانية، ولقد تجلت شدة إيمانه بها في حديثه عن الزلازل والفيضانات التي حدثت في بلاد اليونان في سنة ٣٧٣ ق.م، فقد عزاها إلى غضب الآلهة وخصوصاً بوزيدون إله البحر. هذا مع أنه كان مطلعاً على ما أبداه الفلاسفة الطبيعيون من أسباب لهذه الزلازل، وتعليل لهذه الفيضانات.

ولقد شغله أمر الدين في مصر عن تسجيل الحوادث السياسية والاجتماعية بعض الشيء، وليس هذا شأنه دائما، فقد كان قليل الالتفات لمظاهر الدين حينما تناول تاريخ العصور المتأخرة في بلاد اليونان مثلا.

ثم ينتقل إلى تاريخ البلاد السياسي، ونظامها الاجتماعي، وعنى بتفصيل أمر الطبقات، ونوه بفضل النظام الأرستقراطي في الحكم، فقد كان ديودور من عائلة أرستقراطية، وكره تدخل العامة في السياسة وهاجم النظام الديمقراطي في كل مكان، محتجا على ما كان من انحلال أئينا من جراء إشراف العامة على سياسة البلاد.

أما المصادر التي اعتمد عليها في تاريخ مصر، فالمرجح إنه اعتمد فيما روى من عادات أهل البلاد وتقاليدهم على المؤرخ هيكاتيوس الأبدري الذي زار مصر في أوائل القرن الثالث ق.م. واعتمد في وصف البلاد والحديث عن نهر النيل على المؤرخ الجغرافي أجاتارخيديس الإكنيدي الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني ق.م. وألف كتابا عن «البحر الأحمر» في خمسة أجزاء. واعتمد في الناحية التاريخية على هيروdot.

وكثيرا ما يذكر ديودور روايات الكهنة المصريين فيما يستوضحهم من مسائل، ولعله أضاف إلى ذلك ملاحظاته الشخصية لآثار البلاد وسكانها.

وثمة مصدر آخر. فقد كانت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية عندما زار ديودور مصر، وكانت كذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،

وكانت سائدة في الأوساط المتعلمة وصاحبة النفوذ، ففعل هؤلاء كانوا مصدرا من المصادر التي استقى منها معلوماته. هذا إلى أنه لم يكن من الميسور للكهنة وهم يعلمون صلته بمن يتكلمون اللغة اليونانية من أهل البلاد، أن يملوا عليه معلومات زائفة لا قدرة له على نقدها كما كان الأمر بالنسبة لهيرودوت مثلا. وهذا مما يعلى من شأن كتابه عند المؤرخين. وفي الكتاب من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأنه رجع إلى أحسن المصادر في استقاء تاريخه، وأنه عرض آراء مؤلفيها أحسن عرض وأصدق، وإن الكتاب الأول الذي يكاد يكون مقصورا على تاريخ مصر، هو أدق وأوفى رواية أدبية - بعد كتاب هيرودوت - في تاريخ البلاد، ووصف آثارها، وتقاليدها أهلها.

وبعد فهذا كتاب ألف منذ حوالي ألفين من السنين، ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحرج من التصرف في ترجمته، ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره، وأبقينا على أسماء البلدان كما جرى بها قلمه، وأثبتنا في لحن خاص ما يقابلها في العصر الحديث، وكذلك الأمر في الموازين والمكاييل والأطوال.

## الجزء الأول

١) إن الذين اضطلعوا بكتابة «تاريخ عام» لهم على الناس أجمعين حق الشكر الجزيل لأنهم كابدوا متاعب شخصية للنهوض بالحياة الإنسانية عامة. وإن التعاليم المفيدة التي يعرضونها في دراستهم لا تشوبها شائبة من خطر في حين يقدمون لقرائهم أثمن تجربة. والحق أن تمثل التجربة في كل حالة على حدة يتضمن مشاقا وأهوالا كبيرة حينما:

«عين مدنا لشعوب كثيرة، ودرس فكرهم»<sup>(١)</sup>

وإن ما تقدمه لنا دراسة التاريخ من فهم لسقوط الآخرين ونجاحهم ليذودنا بتعليم دون مقاساة تجارب. وبعد فقد أخذ المؤرخون على عواتقهم أن يجمعوا في رسالة واحدة بعينها الجنس الإنساني كله - هذا الجنس الذي يقرب بعضه من بعض في الرحم ولكنه يبتعد بعضه عن بعض في الزمان والمكان. وبهذا النحو يعمل المؤرخون كما لو كانوا قد خلقوا أداة للعناية الإلهية. لأن العناية الإلهية بعد أن أقامت الصلات بين نظام الكواكب المرئية الثابت وبين أخلاق الناس، جعلت العالم كله تحت إشراف مستمر إلى الأبد. وأفردت لكل نصيبه وفقا لمشية الأقدار.

(١) البيت لهوميروس من الأوديسية الكتاب الأول، البيت الثالث

وكذلك المؤرخون يسردون حوادث الماضى فى العالم كله كما لو كان العالم بلدا واحدا، فيقدمون فى بحوثهم ثبوتا واحدا لحوادث الماضى فى متناول الجميع. وجميل أن نستطيع أن نتخذ من خطأ الآخرين الأعمى موعظة لإصلاح سلوكنا وأن تكون عدتنا فى صروف حياتنا المتشابكة تقليد الذين نجحوا فى الماضى لا بحث الحوادث الراهنة. فضلا عن ذلك، فالناس كلهم يفضلون الشيوخ على الشبان فى المشاورة لما أضفته عليهم السنون من خبرة. ولكن دراسة التاريخ تفوق التجربة الفردية بما تمتاز به حقا من الشواهد الكثيرة. ومن هنا يصح أن نعتبر تحصيل المعلومات التاريخية أفيد شىء فى صروف الحياة وتقلباتها. فمن التاريخ يتعلم الشبان حكمة الشيوخ، ويجد الشيوخ تجاربهم التى حصلوها مضاعفة. ويجعل التاريخ المواطن العادى قادرا على القيام بأعباء القيادة، ويدفع القادة بأمل الشهرة الخالدة إلى الاضطلاع بأنبيل الغايات. هذا إلى أنه يجعل الجند أكثر استعدادا لمواجهة الأخطار فى سبيل بلادهم، أملا فى حسن الذكر بعد الموت، وهو يثنى الأشرار ويقمع دوافع الشر فيهم خوفا من العار الأبدى.

٢ وبالجملة فقد كان الأمل فى طيب الذكر فى التاريخ حافزا للبعض على إنشاء المدن وللبعض الآخر على شرع القوانين التى تحيط الجمعية الإنسانية العامة بسياج من الأمان، وباعثا للكثيرين على الاجتهاد فى ابتكار الفنون والعلوم لفائدة الجنس الإنسانى. ولما كانت سعادتنا تتحقق بجماع هذه المجهودات فيجب علينا أن نكيل أعلى

أقداح الثناء لسببها الرئيسي وهو التاريخ، وينبغي لنا أن نرى في التاريخ حاميا لفضيلة النابهين، وشاهدا على رذيلة الوضعاء، ومنعما على الجنس الإنساني عامة. ذلك أنه إذا كانت الأساطير التي تدور حول العالم السفلي - وليس لها أساس من الحقيقة - عاملا كبيرا في تقوى العالم وعدله، فكم يكون التاريخ. وهو نبيّ الحق، ومعقل الفلسفة كلها، أشد قدرة في رأينا في توجيه الأخلاق الإنسانية نحو النبل والشرف؟ والحق أن الناس أجمعين - لما فطرت عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف - يحيون فترة قصيرة فحسب من الأزل، وهم بعد هذه الحياة أموات إلى الأبد. فأولئك الذين لم يقوموا بعمل مذكور في حياتهم. عندما تفنى أجسامهم يفنى معها كل ما يتصل بحياتهم. أما الذين كسبوا الشهرة بفضائلهم، فتذكر أعمالهم على الدوام، يهتف بها صوت التاريخ الإلهي عاليا. ومن الخير فيما أعتقد ويوافقني في ذلك العقلاء من الناس، أن نحظى بشهرة باقية لقاء نصب زائل. فهرقل مثلا قد تجشم بمحض اختياره - والروايات كلها متفقة في ذلك - طول الوقت الذي قضاه بين الناس مشاقا وأهوالا مستمرة ليفيد الإنسانية فيحظى بالخلود. أما سائر فضلاء الرجال، فقد اكتسب بعضهم مجد الأبطال، والبعض الآخر مجد الآلهة، واعتبروا جميعا أهلا لخالص الثناء، وقد خلد التاريخ فضائلهم. وتبقى سائر الآثار زمنا قصيرا ثم تأتي عليها الصروف المختلفة، أما قوة التاريخ فتنبسط على المعمورة كلها وتتخذ من الزمان الذي يدعو على كل ما عده حاميا للتراث المقيم بين الأعقاب. ويضيف التاريخ كذلك

قوة البيان وليس من السهل أن يجد المرء شيئاً آخر أفضل من هذا. فيه فاق اليونانيون البرابرة، والعلماء الجهال، هذا إلى أنه بوساطة هذا الفن وحده يتأتى لفرد واحد أن يسود الآخرين وبجملة من القول، كل ما يعرض علينا يتخذ صورة متساوقة مع قدرة الخطيب الذي يعرضه، ونحن نسمى الرجال الفضلاء جديرين بالذكر، كأنهم ظفروا بالذكر بالقدح المعلى في الشرف. وإذا قسّم البيان إلى فروع عديدة، لوقع أن الشعر يعطيك لذة لا فائدة، والقوانين تردع دون أن تهذب، وهكذا في سائر الفروع، بعضها لا يضيف شيئاً إلى سعادتك، ويسبب بعضها الآخر ضيقاً ممزوجاً بالفائدة، والبعض الآخر يغير الحقيقة، ولكن التاريخ وحده الذي تنسجم فيه الأقوال مع الأفعال، يتضمن في كتبه كل الفوائد. والتاريخ كما يرى يحث الناس على العدل، ويثلب الأشرار، ويقرظ الصالحين، وبالاختصار فهو يفيد قرأه خبرة ثمينة.

❧ ولذلك كلما رأينا الذين يعنون بكتابة التاريخ يحظون بما هم أهل له من ثناء، انسقنا إلى النزول إلى حلبتهم، ولما صرفت ذهني إلى المؤرخين السابقين، وبالرغم من موافقتي التامة على غايتهم، استخلصت من كتبهم أنهم لم يجتهدوا في تأليفها أن يبلغوا كمال النفع كما كان ينبغي، ذلك بأنه بالرغم من أن فائدة القارئ تتحقق بفهم الكثير من الملابسات الشديدة الاختلاف، فإن أكثر المؤرخين سردوا أخبار حروب تامة في حد ذاتها، شنّها شعب واحد أو دولة

واحدة ولم يحاول إلا القليل أن يسردوا تاريخ الشعوب كلها من العصور القديمة إلى أيامهم، وحتى هؤلاء لم يضع بعضهم كل حادثة في سياقها المناسب، وأهمل آخرون أخبار البرابرة. وأكثر من ذلك، فقد رفض بعض المؤرخين الأساطير القديمة لصعوبة تناولها، في حين أن البعض الآخر لم يستطيعوا أن يتموا نهجهم لأن القدر اقتضب حياتهم<sup>(١)</sup>.

وفضلا عن ذلك، فلم ينحدر واحد ممن تصوروا فكرة كتابة التاريخ العام بتاريخه إلى ما بعد العصر المقدوني، فقد وقف بعضهم بتاريخه عند أعمال فيليب<sup>(٢)</sup>، والبعض الآخر عند أعمال الإسكندر، وبعضهم وقف به عند خلفاء الإسكندر أو سلالاتهم. وبالرغم من أن حوادث خطيرة قد وقعت في الفترة التالية لهذا العهد، ولم تؤرخ إلى عهدنا هذا، فلم يتصد مؤرخ واحد إلى تأليفها في سفر واحد، لضخامة العمل، ولما كانت تواريخ الحوادث، والحوادث نفسها متفرقة في رسائل متعددة لمؤلفين مختلفين. فمن الصعب فهم هذه الفترة وتذكرها. وهكذا بعد أن فحصنا جميع المناهج التي اصطنعها كل من هؤلاء المؤرخين، عقدنا العزم على أن نأخذ بأكثرها فائدة للقارئ وأقلها مشقة عليه. ذلك أنه إذا أخذ المؤرخ على عاتقه أن يسرد - بقدر ما وسعته طاقته - ما تواتر

(١) يظهر أن ديودور يعني هيرودوت ولم يكن له نظام ثابت في تقويم الحوادث، وأناكسيمينيز من أهل لامبساكوس وقد قصر كتابه «يونانيات» على تاريخ اليونانيين، وابفوروس الكيمي الذي اغتاله الموت قبل أن يفرغ من كتابة تاريخه فوقف به عند سنة ٣٤٠ ق.م.

(٢) فيليب الثاني ملك مقدونية ٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م. وهو أبو الإسكندر الأكبر ٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م.

لدى الناس من تاريخ العالم كله كأنه تاريخ بلد واحد، من العصور القديمة إلى العصر الذى نعيش فيه، فسيتجشم كما هو ظاهر مشاقا كثيرة، ولكنه سيؤلف أفيد الأسفار فى عين القارىء المدقق. وسيكون فى استطاعة كل قارئ أن يستنبط كما يشاء، من هذا الشعر - كما لو كان نبعاً مترعاً - ما عساه أن يكون ذا فائدة له فى ملابساته الخاصة. ويجد الكتاب الذين يتصدون لسرد حوادث قد دونها هذا العدد الضخم من المؤرخين أن من العسير أولاً الحصول على الكتب اللازمة لهم، ومن الصعب ثانياً تفهم سير الحوادث وضبطه لاختلاف المصادر وكثرتها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالموضوع الذى تحتويه دفئا سفر واحد ويشيع فيه سياق متصل للحوادث يكون من السهل قراءته وبسيط للغاية تتبعه وفهمه. وبالجملة ينبغى أن نعتبر هذا المنهج الأخير من التاريخ أفضل من سائر المناهج كما أن الكل أفضل من الجزء، والسياق المتصل خير من المتقطع كما أن الحادثة التى يضبط تاريخها بدقة أفيد من حادثة لا يعرف فى أى زمان وقعت.

❧ ولذلك فلما أن رأيت أن هذا المنهج فى التأليف وهو عظيم الفائدة يتطلب عملاً شاقاً وزمناً طويلاً فقد اشتغلت به ثلاثين عاماً. واحتملت فيه مشاقاً وأخطاراً جسيمة، فزرت رقعة واسعة من آسيا وأوروبا لأرى بنفسى أكثر الأماكن وخصوصاً أكبرها خطراً. فقد كان الجهل بوصف المواقع فى الحقيقة سبباً فى كثير من الأخطاء التى وقع فيها مؤرخون، لا من الطبقة المتوسطة وحدها، بل ممن بلغوا ذروة الشهرة. وكان مما سعدنى على القيام بهذا المشروع أولاً وقبل كل

شىء شغفى بالدرس ، فالشغف هو الذى يتيح للناس أجمعين أن يقوموا بأعمال تبدو بعيدة التحقيق. وأتيح لى ثانيا مدد عظيم فى روما من كل ما يمت لموضوعنا بصلة. لأن سمو هذه المدينة التى يمتد سلطاتها إلى أطراف العالم هياً لنا أثناء إقامتنا الطويلة فيها كثيراً من المواد القريبة المتناول، إذ لما كنا من أهل مدينة أجريوم فى صقلية، وكنا على صلات وطيدة بالرومان فى هذه الجزيرة واكتسبنا معرفة واسعة بلغتهم<sup>(١)</sup>، فقد وقفنا على معلومات دقيقة لكل مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الوثائق الرسمية المحفوظة بعناية فى روما منذ أحقاب عديدة. ولقد استهللت تاريخنا بسرد أساطير اليونانيين والبرابرة بعد أن محصنا - بقدر ما وسعنا الجهد - الروايات التى أدلى بها كل شعب عن عصوره القديمة. والآن وقد فرغ هذا السفر، ولو أن بعض أجزائه لم ينشر بعد، أحب أن أكتب مقدمة قصيرة تلم بأطراف الموضوع كله. فالكتب الستة الأولى تدور حول تاريخ الفترة السابقة لحرب طروادة<sup>(٢)</sup> وأساطيرها، وتتناول الثلاثة الأولى منها تاريخ البرابرة القديم، والثلاثة التى تليها تكاد تكون قاصرة على تاريخ اليونانيين، ورويت فى الكتب الإحدى عشر التالية التاريخ العام من حرب طروادة إلى موت الإسكندر. وأثبت فى الثلاثة والعشرين كتاب التالية سائر الروايات إلى مبدأ الحرب بين الرومانيين والغالين، تلك الحرب<sup>(٣)</sup> التى هزم فيها القائد جايوس

(١) كانت اللغة اليونانية لغة صقلية الأولى فى ذلك العصر.

(٢) المأثور أن الحرب الطروادية دارت من سنة ١١٩٢ إلى سنة ١١٨٣ ق.م.

(٣) بدأت الحرب الغالية سنة ٥٩ ق.م.

يوليوس قيصر -الذي أله من أجل أعماله المجيدة- أكثر قبائل الغال، وأشدّها شغفا بالحرب، ومد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى الجزائر البريطانية. ولقد وقعت الحوادث الأولى من هذه الحرب في السنة الأولى من الأوليمبياد الثمانين بعد المائة حين كان هيرودس Herodes حاكما في أثينا.

٥ تلك إذن العهود التي يتناولها هذا السفر، وإنى لم أحدد بالدقة حوادث العهد السابق للحرب الطروادية لأنه لم يصلنا تقويم نظمئن إليه في تاريخ حوادث هذه العهود. ولكننا تابعنا أبو للودوروس الأثيني<sup>(١)</sup> في حساب ثمانين سنة بين الحرب الطروادية ورجوع أحفاد هرقل، ومن هذا التاريخ إلى الأوليمبياد الأولى حسبنا ٣٢٨ سنة، وحسبنا الفترة منذ حكم الملوك في أسبرطة ومنذ الأوليمبياد الأولى إلى بدء الحرب الغالية التي جعلناها نهاية تاريخنا بـ ٧٣٠ سنة، وهكذا يتناول هذا السفر المؤلف من أربعين كتابا تاريخ ١١٣٨ سنة فيما عدا العهد الذي وقعت حوادثه قبل الحرب الطروادية.

وإننا نشرح هذه المسائل بدقة بادية ذي بدء لحرصنا على أن تعطى القارئ صورة عامة للموضوع كله، ولنمنع الذين دأبوا على تصنيف الكتب من مسخ أعمال غيرهم<sup>(٢)</sup> أما نحن فنرجو ألا يثير ما دون في هذا

(١) فيلسوف ومؤرخ عاش في القرن الثاني ق.م. تناول في كتابه «التقويم» الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩ ق.م.

(٢) قال ديودور في كتابه الجزء ٤٠، ٨ أن بعض أجزاء الكتاب وصلت إلى أيدي الجمهور قبل نشر الكتاب كله. فلعل في هذه الجملة إشارة إلى عبث الناشرين بكتبه.

السفر كله على وجه الدقة حسداً، وأن تلاقى الأخطاء التي نتجت عن الجهل تصويبا ممن هم أكثر منا علما.

والآن وقد بينا نهجنا وغايتنا سنحاول أن نحقق ما وعدنا به من

بحث.

**٦** لن أثبت بحثا قائما بذاته مفصلا في العقائد الإلهية التي اعتنقها أولئك الذين كانوا أول من أدخل عبادة الآلهة، ولا الأساطير التي رووها عن كل إله من الآلهة لأن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض. ولكننا سنثبت باختصار كل ما نراه متصلا بدراستنا هذه حتى لا يفوتنا شيء يستحق الذكر. أما فيما يتعلق بالجنس الإنساني قاطبة فسأتناول بدقة الحوادث التي وقعت في الأنحاء المعروفة من المعمورة بقدر ما يتيسر لنا في مسائل حدثت في هذا العهد البعيد، بادئا بأقدم العصور.

أما في مسألة خلق الإنسان في البدء فهناك رأيان عند أشد الفلاسفة الطبيعيين والمؤرخين تحقيقا. فبعضهم يرى أن العالم لم يحدث أبد وأنه لن يزول، ويقولون إن الجنس الإنساني كذلك وجد منذ الأزل وأنه لم يكن هناك أبدا زمن بدأ فيه الإنسان في الظهور<sup>(١)</sup> ويرى الآخرون أن العالم حادث وسوف يزول، ويقررون أن الجنس الإنساني كذلك كان ظهوره الأول في وقت معلوم.

**٧** والمقول إنه في البدء عندما كان الكون في حالة تكوين، كانت السماء والأرض في صورة واحدة لأن طبيعتهما كانت متحدة،

(١) كان هذا رأى أرسطو وخليفته ثيوفراست.

وبعد ذلك عندما انفصل جسمهما الواحد عن الآخر، أخذ الكون المظهر الذى يبدو فيه الآن. أما الهواء فأخذ في حركةٍ مستمرة، وارتفع العنصر النارى فيه إلى الأجواز العليا، فكل ما له هذه الطبيعة يرتفع إلى أعلى لخفته، وهذا هو السبب في أن الشمس وكل مجاميع الأجرام دائبة الحركة الكونية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يهبط العنصر اللزج الكثيف والمادة السائلة معا إلى أسفل لثقلهما، وهذا العنصر يتركز دائما في نفسه ويتكثف وهكذا كوّن البحر من السوائل وكوّن من الأجزاء الأكثر صلابة أرضا كانت لا تزال لزجة شديدة الرخص، وعندما أرسلت الشمس أشعتها عليها صارت هذه الأرض أولا صلبة وبعديئذٍ عندما جعلت الحرارة أديم الأرض عطنا انبتت بعض الرطوبة في مواضع متعددة وتكونت فيها مواد عطنة مغطاة بغشاء رقيق. وتلاحظ هذه الظاهرة إلى الآن في أرض البرك حينما تبرد الأرض ويصبح الهواء فجأة شديد الحرارة، فالعناصر الرطبة التي تحييها الحرارة كما قد بينا، تتغذى مباشرة أثناء الليل من الضباب الذى يتكثف من الهواء المحيط، أما بالنهار فتصلبها الحرارة الشديدة، وأخيرا عندما بلغت هذه الجراثيم أقصى نمائها وأصبح الغشاء شديد السخونة فتشقق، نشأت مخلوقات من جميع الأنواع. فأما التي اكتسبت منها حرارة شديدة، فقد اتخذت أجنحة وارتفعت إلى الأجواز العالية، وأما التي تعلقت بالطبيعة الأرضية فقد اندرجت بين الزواحف وسائر الهوام الأرضية. هذا في حين أن تلك التي كان لها نصيب كبير من العنصر المائى في

تكوينها فقد استجابت إلى المنطقة التي تشابه طبيعتها وصارت كائنات مائية. وحيث أن الأرض تزداد باستمرار صلابة بتأثير حرارة الشمس والهواء، فقد أصبحت أخيرا غير قادرة على أن تخرج أيا من الكائنات الكبيرة، وبدلا من ذلك صار كل نوع من الكائنات الحية يتولد بمعاشرة كائنٍ آخر. ويبدو أن يوريبديدس وهو تلميذ أناكساجوراس<sup>(١)</sup> الفيلسوف الطبيعي لا يرى غير الرأي الذي أسلفنا ذكره فى طبيعة الكون، فقد أوردته فى مسرحية ميلانيبي هكذا:

وهكذا كانت السماء والأرض فى صورة واحدة.  
ولما فتقتا وانفصلتا الواحدة عن الأخرى.  
أنجبتا كل شىء وأرسلتا به إلى النور.  
الأشجار وذوات الأجنحة والكواسر،  
والهوام التى يغزوها البحر والإنسان القانى.

هذه إذن هى الرواية التى وصلتنا عن مبدأ تكوين العالم، ويقولون أيضا إن الناس البدائيين، وكانوا يعيشون عيشة فوضى وحشية، كانوا يخرجون إلى المراعى فرادى ويأكلون ألد العشب وثمار الأشجار البرية، ولما كانت الحيوانات المفترسة تهاجمهم، ساعد بعضهم البعض بدافع من المصلحة، ولما حدا بهم الخوف إلى التجمع، أصبحوا بالتدريج يعرفون هيئة بعضهم بعضا. وكان منطقتهم مشكل لا يبين. وأخرجوا شيئا

(١) أناكساجوراس فيلسوف من المدرسة الأيونية عاش فى القرن الخامس ق.م. ويأتى ذكره ثانية فى الفصل الثامن والثلاثين.

فشيئا ألفاظا مبينة. وبعد ذلك اصطاحوا فيما بينهم على رموز للأشياء التي في متناولهم، وأبان بعضهم لبعض عن أفكارهم في كل أمر. وقامت جماعات على هذا النحو في العالم كله، ولذلك لا يتكلم الناس كلهم لغة واحدة، لأن كل جماعة ألفت لغتها كيفما اتفق، وهذا هو تفسير اختلاف اللغات، وهذه الجماعات البدائية للإنسان هي أصل الشعوب كلها. وإذن فقد عاش الناس الأول حياة شاقة، فلم تكن واحدة من مقومات الحياة قد عرفت بعد، فلم تكن لهم ملابس ولم يكونوا قد عرفوا المساكن والنار ولم يفتنوا بتاتا إلى الغذاء المزروع. وكانوا في الحقيقة في جهل تام بحصاد المحصولات البرية، فلم يهيئوا مخازن للحبوب لتفي بحاجتهم. وهكذا كان الكثيرون منهم يموتون في الشتاء من جراء البرد وقلة الغذاء. ولكن التجربة علمتهم شيئا فشيئا أن يتخذوا من الكهوف مأوى أثناء الشتاء، وكانوا يخترنون فيها من نباتات الحقول ما أمكن الاحتفاظ به، ولما عرفوا النار وسائر المقومات المقيمة، اكتشفت شيئا فشيئا الفنون والحرف وسائر ما عساه أن يكون ذا فائدة في حياة الإنسان وبالجملـة. فالضرورة وحدها هي التي علمت الإنسان كل شيء. ففي كل فن كانت الضرورة هاديا للرجل الذكي الذي أوتى يدين قادرتين على كل عمل وفصاحة منطوق وذكاء عقل.

وسنكتفي بما أسلفنا في مسألة مبدأ خلق الإنسان وحياة البدائية، فغايتنا أن نحفظ بالتناسب في هذا السفر.

٩ وسنحاول الآن أن نسرد الحوادث التي وقعت كما وصلنا في مأثور القول، في الأنحاء المعروفة من المعمورة. ولسنا بقادرين أن

نتحدث عن أول من حكم من الملوك، ولا أن نتبع في هذا الصدد المؤرخين الذين يدعون معرفتهم. فمن غير المعقول أن يكون اكتشاف الكتابة قديماً إلى حد أنه كان معاصراً للملوك الأول، وحتى إذا سلمنا بهذا الفرض فإنه من الواضح على أي حال أن المؤرخين فئة حديثة الظهور في الحياة العامة. ولا يدعى اليونانيون وحدهم إنهم أقدم الأجناس، بل يشاركونهم في هذا الادعاء كثيراً من البرابرة، ذلك بأنهم يعتبرون أنفسهم سكان العالم الأصليين وأول من اكتشف الأشياء المفيدة في الحياة، ويعتقدون أن حوادث تاريخهم أول ما اعتبر أهل للتسجيل. ولسنا بقادرين من ناحيتنا أن نرى وجه الحق في أمر قديم كل شعب، ولا أن نقطع برأى في أي الشعوب سبق الآخر في القدم، وبكم من السنين سبقها. ولذلك فسوف نسردهنا باختصار الروايات التي يدلى بها كل شعب في قدمه وتاريخه المتقادم. فغايتنا أن نحفظ بالتناسب في هذا السفر، وسنتناول أولاً تاريخ البرابرة، وليس ذلك لأننا نعتقد أنهم أقدم من اليونانيين كما قال إيفوروس Ephorus بل لأننا نريد أن نروي بادية ذي بدء تاريخهم حتى إذا بدأنا قولنا في تاريخ اليونانيين لا نقحم حادثة أجنبية في سياق تاريخهم.

ولقد كانت مصر، كما تروى الأساطير مهد الأرباب الأول، وهناك فيما يقال بدأ رصد النجوم، هذا إلى أن حوادث كثيرة جدية بالذكر قد سُجِّلت لعظماء الرجال فيها.

لذلك سنبدأ هذا السفر بتاريخ مصر.

١٥ يقول المصريون إنه في البدء عندما خلق العالم ظهر الإنسان أولاً فى مصر، وذلك لاعتدال مناخ البلاد ولطبيعة نهر النيل فإن هذا النهر الوافر الإنتاج الذى يهيمىء الغذاء الذى ينمو نموا طبيعيا يقيم بسهولة أود المخلوقات بمجرد نشوئها، ذلك أن جذور الغاب واللوطس وكذلك الفول المصرى والنبات المسمى كورسيون<sup>(١)</sup> وكثيرا غيرها مما يشاكلها تكفل لبنى الإنسان غذاء صالحا شهيا. وهم يحاولون أن يدللوا على صحة ما يذهبون إليه من أن المخلوقات قد ظهرت أولاً فى أرضهم، بأن الأرض حول طيبة تخرج إلى يومنا هذا فى بعض الفصول جردانا كبيرة الحجم غفيرة العدد إلى حد يملأ الناظر عجباً من هذه الظاهرة، وبعض هذه الجردان تتخذ سمتها حتى الصدر والقدمين الأماميتين، وتأخذ فى الحركة فى حين أن بقية الجسم لم يتشكل بعد، وما يزال طين الأرض باقيا فيه على حالته الطبيعية. ومن هذا يتضح أنه فى البدء عندما تكوّن العالم وصار مناخ الأرض معتدلا، كان نشوء الإنسان لا بد فى أرض مصر، لأن سائر أنحاء المعمورة فى الحقيقة لا تخرج الآن فى أى مكان منها واحدة من أمثال هذه الكائنات الحية. ففى مصر وحدها يمكن أن ترى بعض المخلوقات فى طريقها إلى الحياة على هذا النحو غير المألوف. وبالجملة، فهم يقولون إنه إذا كان أكثر الكائنات الحية قد هلكت فى الطوفان الذى حدث فى عهد ديوكاليون فمن الجائز أن يكون سكان مصر الجنوبية قد نجوا، لأن هذه البلاد عديمة الأمطار فى

(١) الكورسيون هو درنة النيلوفر الهندى *Nymphaea stellata* الذى ينبت على ضفاف النيل.

الغالب. أما إذا كان كان الهلاك عاما - كما يؤكد البعض - وكانت الأرض قد أنجبت من جديد أنواعا حديثة من الأحياء، فإنه - حتى على هذا الفرض - يكون مبدأ ظهور الكائنات الحية أخرى بهذه البلاد، ذلك أنه عندما اقترنت الأمطار الغزيرة التي هطلت على جميع الأنحاء، بالحرارة التي تسود مصر، أصبح المناخ في غالب الظن شديد الملاءمة لخلق جميع الكائنات الحية من جديد. وحتى في أيامنا هذه، قد يرى المرء في آخر موسم الفيضان بعض الأنواع من المخلوقات في حالة نشوء واضحة في جميع أنحاء مصر التي تغمرها مياه الفيضان، ذلك أنه عندما تنحسر مياه النهر وتجفف الشمس حواف الطين تنشأ الحيوانات فيما يقولون، فيكون بعضها تام التكوين، في حين أن البعض الآخر لا يزال في طريق التكوين ملتصقا بالأرض ذاتها.

ومهما يكن من شيء، فإنه عندما تأمل سكان مصر الأول في الكون وفي طبيعة العالم، ملئوا دهشة وإعجابا، وتصوروا أن هناك إلهين أبديين أزليين هما الشمس والقمر، يسمى أولهما أوزيريس وثانيهما إيزيس ويمكن شرح كلا هذين الاسمين بالرجوع إلى اشتقاقهما. فكلما أوزيريس، إذا ترجمت إلى اليونانية كان معناها «كثير الأعين» والسبب في هذه التسمية واضح. ذلك أنه لما كانت الشمس ترسل أشعتها في كل مكان فكأنها ترى الأرض كلها والبحر بأسره بعيون كثيرة. ويتفق قول الشاعر<sup>(١)</sup> مع ما ذكرنا.

«الشمس التي تطلع على كل شيء، وتسمع كل شيء».

(١) الشاعر يعني هوميروس، والبيت من الأوديسية ١٢، ٣٢٣.

ويطلق بعض كتاب الأساطير القدماء عند الإغريق على أوزيريس اسم ديونيسوس Dionysus وقد يحرفون الاسم إلى سيريوس Sirion ومن بين هؤلاء يومولبوس<sup>(١)</sup> Eumolpus إذ يقول في قصيدته في مدح باخوس Bacchus

«ديونيسوس لمأع كالنجم، نارى الضوء».

وأورفيوس Orpheus حين يقول

«ولهذا يدعوه الناس فانيس<sup>(٢)</sup> وديونيسوس»

ويقول البعض إن العبادة المتخذة من جلد الغزال التى يرتديها ترجع إلى السماء الموشاة بالنجوم. أما اسم إيزيس فلو ترجم كان معناه «القديمة» ومصدر هذه التسمية ميلادها الأبدى الأزلى. أما القرنان اللذان يوضعان فوق رأسها فيرجعان إلى المظهر الذى تبدو فيه حينما يكون القمر هلالا، وإلى البقرة التى تقدر باسمها عند المصريين. ويؤمن المصريون بأن هذين الإلهين يهيمنان على الكون بأجمعه، وبهيئان الحياة والنماء لكل شىء بوساطة فصول ثلاثة هى الربيع والصيف والشتاء، تتم دورتها فى اطراد غير ملحوظ. ومع أن هذه الفصول الثلاثة تختلف فى طبيعتها اختلافا بينا إلا أنها تتم السنة فى انسجام تام. وهذان الإلهان يهيان أعظم القوى الطبيعية لخلق الكائنات الحية، فالإله يبعث قوى الحرارة والروح، والإلهة تبعث قوى الرطوبة والجفاف

(١) الاسم يعنى فى اليونانية «الغنى المجيد» والمأثور أنه منشىء الأسرار الإليوسية.

(٢) فانيس Phanes رب يرمز فى الطقوس الأورفية إلى جوهر الحياة. وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها هذا الاسم فى الأدب القديم.

وكلاهما يبعثان قوى الهواء، وهذه العناصر تنشىء كل شىء وتنميه. ومن ثم فإن الشمس والقمر ليسا سبب بلوغ هيكل العالم الطبيعى بأجمعه حد الكمال فحسب، بل إن هيكل العالم كله كذلك - فيما يدعون - يتكون من تلك العناصر الخمسة، وهى عنصر الروح والحرارة والجفاف والرطوبة وآخرها الهواء، نعددها كما نعدد فى جسم الإنسان الرأس واليدين والرجلين وسائر الأعضاء.

٧٧ واعتبر المصريون الأوائل الذين كانوا يتكلمون لساناً مبيئاً كلاً من هذه العناصر إلهاً أطلقوا عليه اسماً خاصاً مناسباً لطبيعته، وهكذا أطلقوا على الروح اسماً نترجمه بزيوس، ولما رأوا أنه أصل عنصر الحياة فى الكائنات الحية نظروا إليه كما لو كان أباً لجميع الكائنات. وهم يقولون إن أشهر شعراء اليونانيين يتفق معهم فى هذا الاعتقاد حينما يشير إلى هذا الإله قائلاً.

«أبو الناس والآلهة جميعاً»<sup>(١)</sup>

وأطلقوا على النار اسماً نترجمه بهفايستوس، فقد اعتبروه إلهاً عظيماً ذا فائدة جلى لكل شىء فى الإنتاج والنمو التام واعتبروا الأرض أشبه شىء بالرحم لكل ما ينبت وأطلقوا عليها اسم «الأم» meter ويقرب من ذلك أن اليونانيين أطلقوا على الأرض اسم ديميتير demeter، وقد حرّفت هذه الكلمة قليلاً على مرّ الأيام فقد كان اسمها فى غابر الأزمان جيميتير gemeter «أما الأرض» ويشهد بذلك أورفيوس فى قوله:

«الأرض أم جميع الأشياء، واهبة الغنى والتماء»

(١) هوميروس، الإلياذة ٨، ٤٩٠ والتعبير شائع فى الملحنتين.

أما عن عنصر الرطوبة فيقال إن القدماء أطلقوا عليه اسم أوقيانيس ومعناه «الأم الرؤوم» ولكن بعض اليونانيين يرون أن الاسم في الأصل كان أوقيانوس: ويقول عنه الشاعر

«أوقيانوس مصدر الآلهة مع الأم تيثيس»<sup>(١)</sup>

ذلك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هو نهر النيل عندهم وأن الآلهة نشأت على حافته، ومصر هي البلد الوحيد في العالم كله الذي توجد فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء كزيوس zeus وهليوس helius وهرمس hermes وأبلو apollo وبان pan وإيليثويا eileithuia وكثيرين غيرهم<sup>(٢)</sup>. أما عن الهواء فيقال إنهم أطلقوا عليه اسماً يقابله في اليونانية أثينا athena وانهم اعتبروا أثينا ابنة لزيوس، وتصوروها عذراء لأن الهواء في حالته الطبيعية نقي ويشغل المحل الأرفع من العالم بأسره، ومن هنا جاء في الأساطير أنها خلقت من رأس زيوس. وترجع تسميتها بتريتوجينيا tritogeneia «الثالوثية المولدة» إلى أنها تغير طبيعتها ثلاث مرات في السنة، في الربيع والصيف والشتاء. وقد أطلقوا عليها أيضاً اسم جلاوكوبيس glaucopis<sup>(٣)</sup> وليس ذلك لأنها - كما يتوهم بعض اليونانيين - زرقاء العينين، فذلك في الحقيقة تعليل سخيف، بل لأن الهواء يبدو في مظهره أزرق اللون. ويقولون إن هذه

(١) هوميروس، الإلياذة ٨، ٣٠٢ تيثيس tetiys هي زوج أوقيانوس.

(٢) عندما زار ديودور مصر كان كثير من البلاد يحمل اسماً يونانياً مثل ديوسبوليس وهليوبوليس وهرموبوليس وأبوللينوبوليس وبانوبوليس وغيرها.

(٣) هذه الكنية تترجم عادة في هوميروس «لماعة العين»

الآلهة الآتفة الذكر تطوف حول العالم كله وتتجلى للناس أحياناً في شكل حيوانات مقدسة، وتتخذ أحياناً أخرى مظهر الإنسان أو هيئة سائر المخلوقات. وهم يقولون إن هذا ليس حديث خرافة، بل إنه ممكن الحدوث لأن هذه الآلهة هي في الواقع خالقة كل شيء. ولما زار الشاعر مصر وسمع هذا القمص من الكهنة، أورد الرواية السالفة في موضوع ما من شعره كما لو كانت حقيقة واقعة فقال:

«وكذلك الآلهة، في صورة أغراب من بلاد أجنبية»

«يتخذون مختلف الأشكال ويهيمون بين المدن»

«مطلعين على صلف الناس وبرهم سواء»<sup>(١)</sup>

هذا مثل مما يرويه المصريون عن آلهة السماء التي تتمتع بالخلد.

ويقول المصريون إن مخلوقات أرضية ولدت من هذه الآلهة، **٧٣** وأنها كانت في الأصل فانية ولكنها لحكمتها ولما أسدته للإنسانية قاطبة من خير قد حظيت بالخلود. وأن بعضهم حكموا مصر، وقد اتخذ بعض هؤلاء لأنفسهم ألقاباً مطابقة لألقاب الآلهة السماوية في اللغة المصرية، في حين اتخذ البعض الآخر أسماء شخصية مثل هليوس helios وكرونوس kronos وريا reha وكذلك زيوس zeus الذي يسمه البعض أمونا، وأصف إلى من سبق هيرا herha وهيفايستوس hephaestus وكذلك هستيا hestia وأخيراً هرمس hermes. وهم يقولون إن هليوس «الشمس» الذي يحمل نفس اسم الجرم السماوي كان أول ملوك مصر. إلا أن بعض الكهنة يذهب إلى أن هيفايستوس كان أول ملوك مصر،

(١) هوميروس: الأوديسية ١٧، ٤٨٥، ٤٨٧ -

ذلك بأنه اكتشف النار، فارتقى المُلْك من أجل هذه المأثرة. فقد حدث أن أصابت صاعقة شجرة على التلال، وأخذت الغابة المجاورة تحترق، فيم هيفايستوس شطرها، ولما كان الفصل شتاء فقد سرَّ بالنار سروراً عظيماً، ولكن لما خبت النار، طفق على الدوام يطعمها وقوداً، وفيما هو مُبْقِي النار مشتعلة على هذا النحو، استدعى سائر الناس ليشهدوا ما نتج عنها من خير وبركة.

وتلاه في الحكم كرونوس الذي تزوج من أخته ريا وأنجب في رواية البعض أوزيريس وإيزيس، ولكن أكثر الناس يقولون إنه أنجب زيوس وهيرا اللذين حكما العالم بأسره لما أسديا من فضل وخير، وولد لهما خمسة آلهة كل واحد منهم في يوم من أيام النسيء الخمسة في السنة المصرية، وأسماء هذه الآلهة التي ولدت هي أوزيريس وإيزيس وطيفون typhon وأبوللو وأفروديتي aphrodite. وأوزيريس لو ترجم إلى اليونانية كان ديونيسوس وإيزيس قريبة الشبه جداً من ديميتير، وقد تزوج منها أوزيريس، ولما ولي الملك بذل جهده في تحسين حال بنى الإنسان.

**١٤** وأول عمل قاما به هو منع الجنس البشرى من أكل بعضهم بعضاً. وكشفت إيزيس عن غلة القمح، والشعير، وقد كانا ينموان من قبل في الحقول مع سائر النباتات كيفما اتفق ولكن الإنسان لم يكن قد فطن إليهما بعد، أما أوزيريس فابتكر زراعة هذه الحبوب، وعندئذ غير الناس جميعاً طعامهم عن رصاً لمل وجدوا من لذة في طبيعة هذه النباتات التي كشفوا عنها، وكذلك لما بدا لهم من أنه من الأفضل

أن يقلعوا عن العنف والقسوة فيما بينهم. وللتدليل على كشف الغلال المذكورة يشير المصريون إلى التقليد المرعى بينهم من قديم الزمان، فحتى في وقتنا هذا يجمع الرجال في وقت الحصاد من بواكير سنابل القمح ويقفون إلى جانبها ضاربين بين صدورهم ومنادين باسم إيزيس. وهكذا يكرمون الآلهة لما قدمت لهم وما كشفت لهم في أول الأمر. وفي بعض المدن تحمل في عيد إيزيس سوق نبات القمح والشعير مع غيرها من الأشياء في الموكب إحياء لذكرى هذه الاستكشافات التي كشفت عنها الآلهة في البدء ببراعة. وإيزيس قد سنت أيضاً - فيما يقولون - القوانين التي تعامل الناس بمقتضاها فيما بينهم بالعدل وكفوا بموجبها عن استعمال القوة دون وجه حق وعن التناول خوفاً من العقاب. ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يسمون ديميتير المقتنة معترفين بذلك بأن الفضل يرجع إليها في أن استقرت لديهم القوانين أول الأمر.

**٧٥** وأسس أشياع أوزيريس - فيما يقال - مدينة ذات مائة باب في إقليم طيبة المصري، وقد أطلقوا عليها اسم أمه، ولكن بعض الأجيال المتأخرة أطلق عليها اسم ديوسبوليس «مدينة زيوس» وأسماها البعض الآخر طيبة. وتأسس هذه المدينة ليس موضوع خلاف بين المؤرخين فحسب، بل بين كهنة المصريين أنفسهم، إذ يؤكد الكثيرون أن أشياع أوزيريس لم يؤسسوا مدينة طيبة، وإنما أسسها أحد الملوك<sup>(١)</sup> بعد ذلك التاريخ بزمان طويل. وسنورد تاريخ عصره في المكان المناسب. وتمجيذا لوالديهما زيوس وهيرا أقيم معبد امتاز بضخامته وباهظ تكاليفه، له

(١) جاء في الفصل الخامس والأربعين أن مؤسسها هو بوسيريس

محرابان ذهبيان، أما أكبرهما فلزيوس السماوى، وأما أصغرهما فلابيهما زيوس الذى تولى ملك مصر ويدعوه البعض آمون.

أما الآلهة الآخر الذين سبق ذكرهم فقد أقيمت لهم محاريب من ذهب ورتبت لكل منهم طقوس، ونصب كهنة للقيام عليها. وكما كان الحال مع أوزيريس وايزيس كذلك رتبت شعائر للآلهة التى ابتكرت الحرف والصناعات، أو اخترعت شيئاً نافعاً. ومن ثم فإنه بعد اكتشاف مناجم النحاس والذهب فى إقليم طيبة، صنعت الأدوات التى استخدمها الناس فى قتل الحيوانات المفترسة، وفلاحة الأرض وفى التنافس فيما بينهم فى تمدين بلادهم، وإقامة التماثيل والمحاريب الذهبية الباهرة للآلهة. وكان أوزيريس محباً للفلاحة أيضاً فقد ربي كابن لزيوس فى نيسا nysa فى بلاد اليمن بالقرب من مصر. ولذلك يسمى عند اليونانيين ديونيسوس وهو لفظ مشتق من اسم أبيه ومن اسم هذه البلدة. ويحدثنا هوميروس فى أناشيده عن نيسا باعتبار أنها تقع بالقرب من مصر وذلك حيث يقول:

«وهناك نيسا، جبل عال، كثيف الغابات»

«مبعدة فى فينيقية، وقريبة من جداول مصر»<sup>(١)</sup>

ويقولون إن أوزيريس وجد الكرم بالقرب من نيسا، وكذلك اكتشف طريقة عصر ثماره، فكان أول من ذاق النبيذ وأول من علم الناس كافة غرس الكرم، واستخراج النبيذ، وقطف العنب وخرن النبيذ، وقد لاقى هرمس على يديه تكريماً خاصاً دون سائر الآلهة لما أوتى من موهبة فذة فى استنباط ما عساه أن يكون ذا نفع فى حياة الناس جميعاً.

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨-٩

١٢٦ ويرجع إلى هرمس الفضل في الحقيقة في تقويم لغة الإنسان، وفي أن أشياء كثيرة وضعت لها أسماء بعد أن لم يكن لها اسم إلى ذلك الحين. وهو الذي ابتكر الحروف الهجائية، ونظم شعائر العبادة، وتقديم القرابين للآلهة وكان أول من فطن إلى أفلاك النجوم، وطبيعة الأصوات وانسجامها، وأنشأ حلبة المصارعة وعنى برشاقة حركات الجسم وسلامة تكوينه، وصنع قيثاراً ذات ثلاثة أوتار، كل يقابل فصلاً من فصول السنة، لأنه تخيل ثلاث درجات للصوت، الدرجة العالية والمنخفضة والمتوسطة، فالعالية تقابل الصيف، والمنخفضة الشتاء، والمتوسطة الربيع، وعلم اليونانيين ترجمة اللغات، ولذلك سمّوه هرمس «المرجم» وبالجملة، فإن أشياخ أوزيريس اتخذوا من هرمس كاتباً مقدساً، وأطلعوه على جميع أسرارهم، واتبعوا على الأخص مشورته، وهو الذي اهتدى إلى شجرة الزيتون وليست أثينا كما يزعم اليونانيون.

١٢٧ ولما كان أوزيريس محباً للخير توافاً إلى المعالي فقد عبأ - فيما يقال - جمعاً غفيراً لأنه عقد العزم على أن يجوب العالم كله ليعلم الجنس البشري غرس الكرم، وبذر حبوب القمح والشعير، فقد اعتقد أنه إن يجعل الناس يقلعون عن همجيتهم، ويأخذون نصيبهم من حياة التمدن، يحظ بالخلود جزاء ما أسداه من خير عميم، وهذا ما حدث فعلاً. فلم يقتصر الشكر على أولئك الذين نالوا نصيبهم من هذا الخير وقت كشفه، بل إن الأجيال التالية كذلك ما زالت - عرفانا لصنيعة هذه الآلهة في كشف هذا الغذاء الجديد - تقدسهم كآلهة متجلية لا ريب فيها.

وبعد أن نظم أوزيريس الأمور في مصر، سلّم مقاليد الحكم كله -فيما يقال- لزوجه إيزيس، ونصب هرمس مستشاراً لها، لأنه بز جميع أصدقائهما في السياسة والحكمة، ووكل إلى هرقل heracles قيادة الجيوش في جميع أركان المملكة، لأنه يمت إليه بصلة القرابة، ولأنه كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وقوته، ونصب حاكمين يشرف أحدهما وهو بوسيريس bousiris على المناطق التي تنحدر نحو فينيقية وساحل البحر، ويشرف الآخر وهو أنطايوس antaeus على الأقاليم المجاورة للحبشة وليبيا. أما هو فغادر مصر على رأس جيشه ليقوم بحملته ومع أخوه الذي يدعوه اليونانيون أبوللو. وأبوللو هذا هو الذي اكتشف فيما يقال شجرة الغار الذي يتوج به الناس جميعاً تماثيل هذا الإله على التخصيص. ويعزى إلى أوزيريس اكتشاف اللبلاب الذي يعتبر مقدساً له كما يقدهه اليونانيون لديونيسوس، ويقولون إن اللبلاب يعرف في اللغة المصرية بنبات أوزيريس وهو يفضل الكرم عند تقديم القران، وذلك لأن الكرم يسقط أوراقه بينما اللبلاب يحتفظ بخضرته على الدوام. ولقد كان هذا رأى الأقدمين فيما يتعلق بسائر النباتات الدائمة الأخضرار، فقد قدسوا الآس لأفروديت والغار لأبوللو.

وعلی ای حال، فقد خرج -فيما يقال- مع أوزيريس في حملته هذه ولداه أنوبيس anubis ومقدون macedon اللذان امتازا باليسالة، وحمل كلاهما معدات تسترعى الأنظار، اتُّخِذت من حيوانات تتناسب جراتها مع شجاعتهما، فقد اتخذ أنوبيس خوذته من جلد

الكلب، أما مقدون فقد اتخذ قناعاً يشبه وجه الذئب. ولهذا بُجِّلَت هذه الحيوانات عند المصريين. وصحب أوزيريس أيضاً في هذه الحملة بان pan الذى بالغ المصريون فى عبادته، فلم يُقِم له الوطنيون التماثيل فى كل معبد فحسب بل أنشأوا باسمه مدينة فى إقليم طيبة دعاها الوطنيون خِمو chemmo ومعناها لو ترجمت إلى اليونانية «مدينة بان». ورافقه كذلك ممن لهم خبرة بشئون الفلاحة مارون maron لمهارته فى غرس الكرم، وتريبتوليموس triptolemus لكفايته فى بذر القمح وسائر عمليات حصاده، ولما أعد كل شىء بدأ أوزيريس رحلته مخترقاً الحبشة. بعد أن نذر للآلهة أن يرسل شعره إلى أن يعود إلى مصر. وهذا هو السبب فى أن سنة إطلاق الشعر قد انتشرت فى مصر إلى عصر متأخر، وفى أن الذين يسافرون إلى الخارج يطلقون شعورهم إلى أن يعودوا ثانية إلى بلادهم. وبينما كان أوزيريس فى الحبشة، قدموا له - فيما يقال - طائفة الساتيرين satyri ذوى الحقاء المشعرة. لأن أوزيريس كان محباً للمرح ومولعاً بالموسيقى والرقص. ولهذا السبب نفسه رافقه فى رحلته جمع غفير من المنشدين بينهم تسع غانيات يجدن الغناء وسائر الفنون وهن اللاتى يدعوهن اليونانيون موزاى musae «ربان الفنون»، وكان على رأسهن أبوللو ومن هنا سُمى «رائد ربات الفنون» موزيجيتيس musigetes، وقد استصحب فى حملته أيضاً الساتيرين لمهارتهم فى الرقص والغناء وبراعتهم فى جميع فنون التسلية واللهو، لأن أوزيريس لم يكن محارباً، ولم يحشد جنده للمواقع والأخطار، إذ تقبلته جميع

الشعوب إلهاً عن رضاء لما حباها من نعم، وفي الحبشة علم الناس شئون الفلاحة وأنشأ مدناً جديدة بالذکر وترک وراءه رجالا يشرفون على شئون البلاد ويجمعون الخراج.

١٦٩ ويحكى أنه بينما كان هؤلاء فى شاغل من أمر رحلتهم فاض النيل على جانبيه إبّان ظهور الشعرى اليمانية، وهو الوقت الذى يرتفع فيه النهر عادة، وأغرق مساحة عظيمة من أرض مصر وبخاصة المنطقة التى تقع تحت إشراف بروميثيوس Prometheus، وكاد بروميثيوس أن يبجع نفسه لفرط حزنه لأن كل من كانوا فى تلك المنطقة هلکوا على بكرة أبيهم. وأطلق على النهر اسم النسر aetus لسرعة تياره وشدة تدفقه. ولما كان هرقل رجلاً شهماً تواقاً إلى الفتوة، فقد سد الثغرة بسرعة، وأعاد النهر إلى مجراه الأصلى، ولقد جعل شعراء اليونانيين من هذه الحادثة أسطورة بأن قالوا إن هرقل قتل النسر الذى كان ينهش كبد بروميثيوس. وأقدم اسم عرف لنهر النيل هو أوقيانيس ويترجم إلى اليونانية بأوقيانوس، ويقال إنه سُمى نسرًا لما حدث من فيضان. وقد أطلق عليه فيما بعد اسم إيجيبتوس aegyptus نسبة إلى ملك قديم من ملوك البلاد ويشهد الشاعر على صحة ذلك فى قوله:

«وأرسيت سفنى المقوسة فى نهر إيجيبتوس»<sup>(١)</sup>

ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس thonis، وقد كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم. أما آخر اسم للنهر

(١) هوميروس: الأوديسية ١٤، ٢٥٨٠.

وهو ما يعرف به الآن فقد اشتق من اسم الملك نيلوس nilus. وعلى أى حال، لما وصل أوزيريس إلى تخوم الحبشة ضبط مياه النهر بإقامة السدود على جانبيه حتى لا تنغى المياه على الأرض وقت الفيضان أكثر مما ينبغي. وأقام فتحات تنساب المياه منها فى رفق بمقدار، كلما دعت الحاجة. ثم واصل سيره بمحاذاة ساحل البحر الأحمر<sup>(١)</sup> مخترقاً بلاد العرب حتى وصل إلى الهند وأقاصى المعمورة. وفى الهند أنشأ مدناً ليست بالقليلة، أطلق على إحداها اسم نيسا، فقد أراد أن يخلف هناك ما يخلد ذكرى البلدة التى نشأ فيها بالقرب من مصر. وأدخل فى نيسا من أعماق الهند زراعة اللبلاب، وهذه هى المنطقة الوحيدة فى الهند كلها وما يجاورها من البلاد التى ينمو فيها هذا النبات إلى اليوم. ثم خلف وراءه فى طول البلاد وعرضها شواهد كثيرة أخرى على إقامته، مما حمل الأجيال التالية من الهنود على التلاحى بشأن هذا الإله، مدعين أنه هندي الأصل.

**٢٥** واشتغل أوزيريس كذلك بصيد الفيلة وترك وراءه فى كل مكان شواهد تشير إلى حملته الخاصة هذه، ثم اخترق سائر القبائل الآسيوية حتى عبر الدردنيل فى طريقه إلى أوروبا. وفى تراقيا قتل ليكرجوس lycurgus ملك البرابرة لأنه وقف فى وجه مشروعاته، وترك وراءه مارون وقد صار إذ ذاك كهلاً، ليشرف على ما غرس من نباتات (١) البحر الأحمر عند اليونانيين الأقدمين يعنى البحر الأحمر كما نعرفه الآن والمحيط الهندي والخليج الفارسي

فى تلك البلاد، وأوعز إليه أن يبتنى مدينة باسمه وهى التى تدعى مارونيه maronea وترك من بعده ابنه مقدون ملكاً على البلاد التى سميت باسمه مقدونيا وعهد إلى تربتوليموس العناية بشئون الفلاحة فى أتيكا، وأخيراً وبعد أن جاب كل أنحاء المعمورة، حبا البشر بنعمة الحبوب السهلة الزراعة والوفيرة الإنتاج، وعلم سكان المناطق غير الصالحة لزراعة الكرم صنع شراب مستخرج من الشعير<sup>(١)</sup> ولكنه لا يقل كثيراً عن النبيذ نكهة وقوة. وعند عودته إلى مصر جلب معه من جميع البلاد أحسن الهدايا، وقد رفعه الجميع بلا استثناء لعظم نفحاته إلى مرتبة الخلود، وقدموه كما يقدمون أرباب السماوات، ولما رفع من بين الناس إلى مصاف الآلهة، رتبت له إيزيس وهرمس الأضاحى وسائر آيات التكريم، وأقاما له شعائر، واستحثا كثيراً من الطقوس السرية تمجيداً لعظمته وقوته.

وبالرغم من أن الكهنة قد احتفظوا من قديم الزمان بقصة موت أوزيريس فى طى الكتمان، إلا أنه بتراخى الزمان أظهر بعضهم العامة على هذا السر. وأوزيريس فيما يقولون كان ملك مصر الشرعى، وقتله أخوة تيفون وقد كان قوياً فاجراً، وبعد أن مزق جثته إلى ستة وعشرين جزءاً أعطى كل واحد من حلفائه جزءاً. لأنه أراد أن يشركهم جميعاً فى هذا الجرم، وظن أنه يجعل منهم بذلك أعواناً وحراساً أقوىاء لعرشه. ولكن إيزيس أخت أوزيريس وزوجه ثارت لمقتله بمساعدة ابنها

(١) ورد ذكر الجعة المصرية فى الفصل الرابع والثلاثين باسم زيتوس

حورس horus وقضت على تيفون وشركائه، واستولت على عرش مصر، وقد نشبت الموقعة بينهم على شاطئ النهر بجوار تلك القرية التي تعرف الآن باسم أنطايوس antaeus، وهي تقع فيما يقال تجاه بلاد العرب. وقد اشتق اسم هذه القرية من اسم أنطايوس<sup>(١)</sup> الذي كان معاصراً لأوزيريس وقد نال عقابه على يدي هرقل. ومهما يكن من شيء، فقد وجدت إيزيس جميع أجزاء الجثة ما عدا السوءة. ولما كانت ترغب في أن تخفي قبر زوجها، وأن تجعله في الوقت نفسه موضع التقديس من جميع سكان مصر، فقد أنفذت رغبتها هذه على النهج التالي: يحكى أنها صبعت تمثالا من الشمع والطور قريب الشبه من أوزيريس وفي حجمه، حول كل جزء من أجزاء الجسم، ثم استدعت الكهنة فئة بعد فئة وأخذت عليهم جميعاً العهد على أن لا يبوحوا لأحد ما بما أوتمنوا عليه من سر، ثم قالت لكل فئة منهم على حدة أنها وكلت إليها أمر دفن الجثة، وجعلت تذكر كل فئة بالنعمة التي أسداها أوزيريس، ودعتهم إلى دفن الجثة في حرمهم الخاص بهم، وحضتهم على تقديسه كإله، وعلى تقديس أحد الحيوانات - أيا اختاروا - باسمه. على أن يقدس الحيوان طالما كان على قيد الحياة، كما كانوا يقدسون أوزيريس من قبل، فإذا نفق، عدُّ جديراً بأنث يدفن كما دفن أوزيريس. ولما كانت إيزيس تحرص على أن تدفع الكهنة إلى الاستمسك بهذه التشريعات بدافع من مصلحتهم الذاتية، فقد أعطتهم ثلث الأراضي المصرية في

(١) في الأساطير أنه ابن البحر والأرض، وكان يستمد قوته من أمه الأرض بملامسة قدمه لها، ولم يستطع هرقل أن يغلبه إلا بعد أن رفعه في الهواء.

مقابل قيامهم بعبادة الآلهة وخدمتها. أما الكهنة، فعرفنا منهم بأنعم أوزيريس على حد قولهم، وحرصاً منهم على إرضاء إيزيس، ويحفزهم فوق ذلك دافع من المصلحة الذاتية، فقد قاموا بجميع ما أوحت به إيزيس. وذلك هو السبب في أن كل جماعة من الكهنة تعتقد إلى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرائهم. ولا زالوا يقدسون الحيوانات التي خصصت له من قديم الزمان، وعند موتها يستأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها، وخصص له العجلان المقدسان اللذان يسمى أحدهما أبيس apis، ويسمى الآخر منيفيس mnevis، وفرضت عبادتهما كأنهما إلهان على جميع المصريين على السواء. وذلك لأن نفع هذه الحيوانات عظيم للغاية لمكتشفى الحبوب عند بذر الحب وفي سائر العمليات الزراعية ذات المنفعة العامة.

ويقال إن إيزيس أقسمت بعد موت زوجها ألا تتخذ لها بعلاً مرة أخرى، وقد ظلت إلى آخر أيامها تحكم مصر بالقسطاس المستقيم حتى بزت الجميع في البر برعيتها. ولما انتقلت بدورها من بين البشر، وضعت في مصاف الخالدين، ودفنت بمنفيس حيث يرى ضريحها إلى وقتنا هذا قائماً في حرم معبد هيفايستوس. ولكن يقول البعض أن جسد هذين الإلهين ليسا في منفيس بل يرقدان على الحدود بين الحبشة ومصر في جزيرة في النيل بالقرب من الموضع الذي يقال له فيلاي philae ويطلق على هذه الجزيرة اسم «السهل المقدس» لذلك السبب. ويستشهدون على صحة دعواهم هذه بقبر أوزيريس الذي يقده

كهنة مصر أجمعين والذي ما يزال قائماً في هذه الجزيرة تحيط به ثلاثمائة وستون جرة يملأها الكهنة الموكلون بهذا الأمر لبنا كل يوم باسمى هذين الإلهين. ومن أجل هذا حرم دخول هذه الجزيرة على الغرباء. ويعتبر كل سكان إقليم طيبة وهو أقدم الأقاليم المصرية، القَسَم بأوزيريس الراقد فى فيلاى أغلظ الأيمان. ويقال إن أعضاء أوزيريس التى عثر عليها قد دفنت كما يليق بها بالطريقة التى ذكرنا. ولكن إيزيس رأت أن سوءته - وقد ألقى بها تيفون فى النهر على حد قولهم لأن جميع أشياعه أبوا أن يقبلوها - أهل للتقديس مثل سائر الأعضاء. فأقامت لها صورة فى المعابد واختصتها بالتبجيل، وجعلت تلك الصورة أثناء الطقوس السرية وتقديم الضحايا لذلك الإله، محلاً لأبلغ التبجيل وأوفر التقديس. ولذلك يقدره اليونانيون الذين أخذوا عن مصر الشعائر السرية وعبادة ديونيسوس فى طقوسهم الخفية وشعائرهم السرية وعند تقديم الأضاحى لهذا الإله، وهم يسمون هذا العضو فاللوس phallus.

٢٣ وانقضى - فيما يقال - بين عهد أوزيريس وإيزيس وبين حكم الإسكندر - الذى أنشأ فى مصر المدينة التى تسمى باسمه - أكثر من عشرة آلاف سنة. ولو أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الفترة بين هذين العهدين تقل قليلاً عن ثلاثة وعشرين ألف سنة. ويقولون إن الذين يزعمون أن أوزيريس هو ابن زيوس وسميلى semele، وقد ولد لهما فى طيبة من أعمال بيوشيا، يلقون القول على عواهنه. ذلك بأنه عند ما زار أورفيوس orpheus مصر، اشترك فى الشعائر الخفية والطقوس السرية

لديونيوسوس. ولما كان أورفيوس صديقاً لبني قادموس، مكرماً بينهم، فقد حرف قصة ميلاد ديونيوسوس سعياً في مرضاتهم، وتقبل الدهماء هذه الشعائر الخفية والطقوس السرية راضين، لجهلهم بالحقيقة من ناحية، ولأنهم أحبوا أن يعتبر الإله يونانياً من ناحية أخرى. وقد لجأ أورفيوس إلى المعاذير في تحريفه للرواية الخاصة بمولد الإله وتغييره الطقوس الخفية. فقد كان من بين أبناء قادموس الذي ولد في طيبة من أعمال مصر، ابنة تدعى سميلي اغتصبها رجل غير معروف فحملت منه، وبعد انقضاء سبعة أشهر، ولدت طفلاً اعتقد المصريون أن طلعتة تشبه طلعة أوزيريس. ومثل هؤلاء الأطفال لا يولدون عادة أحياء، إما لأن الآلهة لا ترضى بذلك، أو لعلها الطبيعية لا تسمح به. ولما أدرك قادموس ما حدث، وكان قد أوحى إليه أن يحيى شعائر آبائه، غطى الطفل الرضيع بوشاح من ذهب، وقرب إليه الأضاحي التي تناسب مقامه كما لو كان أوزيريس قد تجلى للناس. وكذلك ألحق أبوه الطفل بزيوس، تمجيدهم لأوزيريس ومحوراً للعار الذي لحق بابنته التي هُتكت عرضها. وفي العصور المتأخرة أصبح أورفيوس، الذي ذاعت شهرته العظيمة بين اليونانيين، لجودة إنشاده وطقوسه السرية وقصصه عن الآلهة، صديقاً حميماً لبني قادموس، ولقى في طيبة تقديساً فائق الحد، وبعد أن وقف على عقائد المصريين الدينية، نقل مولد الإله القديم إلى عصر متأخر، وأنشأ إرضاء لبني قادموس طقساً جديداً يبشر فيه المريدين بأن ديونيوسوس هو ابن زيوس وسميلي. أما جمهرة الناس

فقد خدعوا تماماً إما لجهلهم بالحقيقة أو لاعتقادهم أن أورفيوس أهل للثقة وعارف بهذه الأمور، وتقبل أكثر الناس بسرور الرأي القائل بأن الإله يوناني كما ذكرت آنفاً، وتمسكوا بمناسك عبادته. وبعيدئذ تناول القصاص والشعراء قصة ميلاد هذا الإله وملأوا بها المسارح فأصبحت عقيدة راسخة لا تتغير لدى الناس على مر الدهور.

وبالجملة، **٢٤** فالمصريون يقولون إن اليونانيين ينحلون لأنفسهم أشهر الأبطال والآلهة بل ومستعمرات المصريين. فهرقل مثلاً وهو مصرى الأصل استعان بقوته في جوب مساحة شاسعة من المعمورة وأقام نصباً على حدود ليبيا. ويحاول المصريون أن يجدوا في القصص اليوناني أدلة على صحة هذه الدعوى، فبينما يجمع الناس قاطبة على أن هرقل بذل المعونة لآلهة أوليمبوس في حربهم ضد المردة، يقول المصريون إنه من غير الممكن إطلاقاً أن تخرج الأرض المردة في الوقت الذي يقول اليونانيون إن هرقل ولد فيه أى في الجيل السابق لحرب طروادة<sup>(١)</sup>، بل يرجع المصريون أنفسهم أن يكون ذلك قد حدث في بدء الخليقة، ويقع ذلك في حسابهم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، في حين أنه قد مضى على حرب طروادة أقل من مائتين وألف سنة. هذا إلى أن الهراوة وجلد السبع يناسبان هرقل إذا تخيلناه في ذلك العصر القديم، ففي ذاك العصر لم تكن الأسلحة قد عرفت بعد وكان الناس يدافعون عن أنفسهم بالهراوة ضد أعدائهم، ويتخذون من جلود الحيوانات دروعاً واقية. ويقول المصريون إن هرقل بن زيوس ولكنهم يقولون إنهم

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨ - ٩

لا يعرفون من أمر أمه شيئاً. أما ابن الكميني alcemene فقد ولد بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشرة آلاف سنة وسمي عند مولده ألكيوس<sup>(١)</sup> alcaeus ثم غير الاسم بعد ذلك إلى هرقل، لا لأنه اكتسب شهرته عن طريق هيرا كما يقول ماتريس matris<sup>(٢)</sup> بل لأنه قلد هرقل القديم في أسلوب حياته فورث شهرته واسمه. وتتفق أقوالهم مع ما أثر عند اليونانيين من قديم الزمان من أن هرقل طهر الأرض من الوحوش الضاربة، وهي دعوى لا يمكن أن تلحق بحال ما يبطل ولد حوالى عصر الحروب الطروادية، حين كان الجزء الأكبر من المعمورة قد تحضر وانتشرت فيه الزراعة وأنشئت المدن وانتشر السكان في كل مكان. وعلى ذلك فإن دعوى تمدين العالم أحرى بأن تلحق بهرقل الذى عاش في العصور القديمة حين كان لجذوع الحيوانات المقترسة الغلبة على الإنسان وخصوصاً في مصر في صعيدها الذى ما زال إلى وقتنا هذا بيداء يعمرها الحيوان المتوحش. ومن المعقول أن هرقل حينما استرعت هذه المنطقة انتباهه - وهي مسقط رأسه - طهرها من الحيوانات المقترسة وهياها للزارعين. فاستحق من أجل هذه المنة المجد الإلهي. ويقول المصريون أن برسويوس perseus أيضاً ولد في مصر. وأن اليونانيين الذين يروون في أساطيرهم أن إيو Io قد مسخت بقرة، جعلوا أرجوس argos مسقط رأس إيزيس.

وبالجملة فقد اختلفت الآراء كثيراً حول هذين الإلهين لأن الإلهة عينها تسمى أحياناً إيزيس وأحياناً أخرى ديميتير وأحياناً

(١) الأناشيد الهومرية: ١، ٨ - ٩

(٢) الأناشيد الهومرية: ١، ٨ - ٩

ثسموفوروس (المقننة) وأحياناً سيليني (القمر) وأحياناً هيرا، بينما يدعوها البعض الآخر بجميع هذه الأسماء. أما أوزيريس فيدعى مرة سيرابيس ومرة أخرى ديونيسوس ومرة ثالثة بلوتو وراعبة آمون ويسميه بعضهم زيوس ويظنه الكثيرون بان نفسه ويذهب البعض إلى أن سراپيس هو الإله الذى يدعوه اليونانيون بلوتو. ويقول المصريون أن إيزيس اكتشف أدواء كثيرة لتحسين الصحة فقد كانت ذات خبرة عظيمة فى فن الطب، ولذلك فإنها تجد لذة عظمية حتى بعد أن رفعت إلى مصاف الآلهة فى مداواة بنى الإنسان. وفى الأحلام تبذل العون لمن يهيبون بها، فتقيم بذلك الدليل الساطع على تجليها الذاتى وحسن صنعها لمن يلوذ بها من الناس. ويقول المصريون أنفسهم انهم يقيمون الدليل على زعمهم هذا بوقائع بيّنة، لا بأساطير كالتى يزجوها اليونانيون. ويكاد العالم أجمع<sup>(١)</sup> يشهد للمصريين على صحة دعواهم، لأن الناس ينافس بعضهم بعضاً فى تبجيلها لما تبديه من مظاهر التجلى فى مداواة المرضى، فهى تقف بجانب المرضى فى المنام، وتقدم لهم الدواء لدائهم وتأتى بالمعجزات فى شفاء الذين يسلمون إليها الأمر منهم، وقد شفى على يديها الكثيرون ممن استيأس منهم الأطباء لاستعصاء دائهم، وكثير ممن فقدوا أبصارهم تماماً أو اعتل منهم عضو من أجسامهم عادوا إلى حالتهم السابقة لما فزعوا إليها، وقد اكتشفت أيضاً إكسير الخلود. ولما تأمر العمالقة على قتل ابنها حورس، ووجدت جثته هامة تحت الماء، استطاعت بهذا الإكسير لا أن تبعثه حياً وتنفخ فيه الروح فحسب، بل جعلته ينال نصيبه من الخلود

(١) انتشرت عبادة إيزيس بامتداد نفوذ البطالمة، ولم تكد تخلو منها مدينة ذات شأن فى حوض البحر المتوسط.

أيضاً. وقد اتفق المؤرخون على أن حورس كان آخر الآلهة من عالم الفانيين الذين تبوأوا عرش مصر بعد أن (رفع أبوه أوزيريس إلى السماء) ويقال إن حورس، أحسن إلى الجنس البشرى بالكهانة والتطبيب.

ويقدر كهنة المصريين الفترة بين حكم هليوس «الشمس» وبين غزو الإسكندر لآسيا بثلاث وعشرين ألف سنة تقريباً. وقد حكم أقدم آلهتهم كما جاء في أساطيرهم أكثر من مائتي وألف عام. وحكم من جاءوا بعدهم فترة لا تقل عن ثلثمائة عام. ولما كان هذا العدد الضخم من السنين غير معقول، فقد حاول البعض أن يفسر الأمر بأنه قد جرت العادة من قديم الزمان قبل أن يفتن الناس إلى حركة الأرض حول الشمس، بأن تحسب السنة بدوران القمر، ولما كانت السنة على هذا الاعتبار ثلاثين يوماً، فمن المعقول أن يكون بعض الناس قد عاش مائتي وألف عام. ففي وقتنا هذا، والسنة اثنتا عشر شهراً، ليس بقليل من يعيش أكثر من مائة عام، ولهم في أمر الذين اشتهروا بأنهم حكموا أكثر من ثلثمائة عام تفسير مشابه، فهم يقولون إن السنة في تلك العصور كانت مؤلفة من الأشهر الأربعة التي يتألف منها الفصل الواحد من فصول السنة - الربيع والصيف والشتاء. ولذلك يسمى بعض اليونانيين السنة «فصلاً» والتقاويم السنوية «التقاويم الفصلية».

ولقد جاء في الأساطير المصرية كذلك أنه ظهر في عهد إيزيس مخلوقات ذات أجسام متعددة، سماها اليونانيون المردة<sup>(١)</sup>، وقد صورهم

(١) المردة في الأساطير اليونانية مخلوقات ذات أجسام هائلة لا متعددة، ويرى فوجل vogel أن النص غير متصل، وأن الأصل كان «سماها اليونانيون المردة، ويسمئها المصريون...

المصريون على جدران معابدهم فى أوضاع عجيبة وقد انهال عليهم أشياع أوزيريس ضرباً. ولكن يقول البعض إن المردة ولدتهم الأرض يوم بدأت الكائنات الحية فى النشوء. ويذهب البعض إلى أن تواتر القصة بأنهم ذوو أجسام عدة يرجع إلى تفوقهم فى القوة البدنية وإلى ما قاموا به من الاعمال، وقد أجمع الرواة على أنهم أبيدوا جميعاً فى حربهم مع زيوس وأوزيريس والآلهة الموالية لهما.

❧ وعلى نقيض العرف السائد بين الناس أجمعين، يجيز القانون للمصريين أن يتزوجوا من أخواتهم، وذلك، فيما يقال، لما أحرزته إيزيس بينهم من نجاح، فقد كانت حليمة لأخيها أوزيريس، ونذرت عند موته ألا تتخذ لها بعلاً مرة أخرى. ثم ثارت لمقتل زوجها، وظلت تحكم بالقسطاس المستقيم. وبالجملة، فهى سبب ما أصاب الناس أجمعين من نعم عظيمة عديدة. ومن أجل هذه الأسباب عينها، جرى العرف على أن يكون للملكة من القوة والجد أكثر مما للملك، وأن يكون للمرأة بين سواد الناس حق القوامة على زوجها. ويتعهد العروس فى العقد الذى يبرم بشأن المهر أن يكون مطيعاً لعروسه فى جميع الأمور.

وليس بخاف على أن فريقاً من المؤرخين يجاهر بأن قبرى هذين الإلهين يوجدان فى نيسا فى بلاد العرب. ومن هنا دعى ديونيسيوس «نيسايوس» وأنه قد أقيم لكل من هذين الإلهين نصب نقشت عليه كتابات بالحروف المقدسة. وقد نقشت على عمود إيزيس «أنا إيزيس

ملكة الأرض كلها، نشأنى هرمس، ولن يستطيع أحد أن يتحلل مما سننت من شرائع، أنا الابنة الكبرى لكرونوس الرب الأصغر، أنا زوج الملك أوزيريس وأخته، أنا أول من كشف للناس عن الغلال، أنا أم الملك حورس، أشرق مع الشعري اليمانية ومن أجلى أنشئت مدينة باسطوس، مرحى، مرحى يامصر، يامن ربيقتنى». ويقال إنه نقش على عمود أوزيريس «أبى كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين، وأنا أوزيريس الملك الذى جاب على رأس جيشه الأرض كلها حتى أقاليم الهند المقفرة، والمناطق التى تنحدر نحو الشمال حتى منابع نهر الإيستر<sup>(١)</sup> ثم قفل راجعاً عبر مناطق أخرى حتى وصل إلى المحيط. أنا الابن الأكبر لكرونوس، وحيث إننى نجمت من بيضة ناصعة شريفة، فقد أصبحت بذرة تضارع النهار منبتاً. وليس فى المعمورة إقليم لم أبلغه مسبقاً على الناس أجمعين الأنعم التى كنت قد اكتشفتها». ويمكن قراءة هذا القدر فقط فيما يقال، من النقوش التى على العمودين. أما الباقي وهو الجزء الأكبر منها فقد محته يد الزمان. ولقد تضاربت عند جمهرة الناس الروايات حول هذين الإلهين وذلك لأن الكهنة بعد أن وقفوا على القول الحق فى هذين الإلهين حفظوا السر فى طى الكتمان ولم يشاءوا أن يطلعوا الجمهور على حقيقة الأمر، بحجة أن الأخطار قد تنتاب كل من عساه أن يطلع العامة على سر هذين الإلهين.

(١) هو نهر الطونة أو الدانوب.



ويقول المصريون إن جاليات كثيرة خرجت من مصر منذ ذلك العهد، وانتشرت في جميع أنحاء المعمورة، فقد قاد بيلوس belus الذى ظنه الناس ابن بوزيدون poseidon وليبيا، جالية إلى بلاد بابل، وبعد أن أنزلها على شاطئ نهر الفرات، نصب فيها كهنة على نمط كهنة مصر، معفين من الضرائب ومن جميع الواجبات العامة، وهؤلاء الكهنة، ويسميهم البابليون الكلدانيين، يرصدون النجوم مقتفين في ذلك آثار كهنة مصر، وهم فلاسفة طبيعويون وفلكيون. ويضيفون إلى ذلك أن الجالية التى نزحت من مصر أيضاً تحت قيادة دناؤس danaus أسست مدينة أرجوس argos التى قد تكون أقدم المدن اليونانية. وأن الكولخييين colchi فى بلاد بنطش pontus واليهود فيما بين بلاد العرب وسوريا جاليتان نزحتا عن مصر واستقرتا هناك، ذلك بأن هذين الشعبين قد توارثا من قديم الزمن عادة ختان الأطفال عند الولادة، وهى عادة مأخوذة عن مصر. وهم يدعون أن الأثينيين أيضاً جالية من مدينة سايس saïs فى مصر، ويحاولون أن يقيموا الدليل على هذه الصلة. فالأثينيون وحدهم. دون سائر اليونان يسمون المدينة «أستى» asty وهو اسم مأخوذ من مدينة «أستى» فى مصر. ناهيك بأن الجمعية الأثينية خضعت لنفس نظام الطبقات السائد فى مصر. فقد قسمت الأمة إلى ثلاث طبقات الأولى يدعى أفرادها الأشراف eupatridea ويتمتعون بأوفى نصيب من التعليم وهم أهل لأسمى التكريم فى أعين الناس،

كما هو الأمر بالنسبة للكهنة في مصر. والطبقة الثانية تتكون من ملاك الأرض geomoroi وقد كان عليهم أن يتزودوا بالسلاح وأن يحاربوا من أجل بلادهم، مثلهم في ذلك مثل الطبقة التي تدعى في مصر طبقة المزارعين، وهي التي تغذى البلاد بالجند. أما الطبقة الثالثة فيندرج تحتها العمال demurgoi الذين يقومون بالحرف الآلية، ويؤدون الأعمال الضرورية للمجتمع، والطبقة التي تقابل هذه عند المصريين ضربت عليها نفس هذه التكاليف.

هذا إلى أن بعض قادة الاثينيين كانوا من المصريين، فبتيس Petes<sup>(١)</sup> مثلاً، والد مينيسثيوس MENESTHEUS الذي اضطلع بنصيب في الحرب ضد طرواده، كان مصرياً بلا جدال، وصار فيما بعد مواطناً ثم ملكاً في أثينا [ومثل هذا يقال عن كيكروبس CECROPS الذي<sup>(٢)</sup>] كان ثنائي الوطن، يونانيا ومصرية في نفس الوقت، فقد كان ثنائي الجسم أيضاً، جزء حيواني والنصف الآخر إنسانى.

وكذلك يدعون أن إرخثيوس ERECHTHEUS وهو مصرى المولد صار ملكاً على أثينا، ويقيرون على ذلك براهين كثيرة نقتطف منها ما يلي: لما حدث ذلك الجفاف الشديد الذى يجمعون على وقوعه، وعم كل أنحاء المعمورة تقريباً فيما عدا مصر لطبيعة أرضها الخاصة، وأتى على الحبوب وعلى أعداد غفيرة من الناس، استورد إرخثيوس وقد

(١) بسمه هوميروس في الإلياذة ٣، ٥٥٢ بيتوس

(٢) العبارة التي بين المعكفين غير واردة في النص، ولكن الوصف ينطبق على كيكروبس أول ملوك أثينا كما جاء في الأساطير، وكان نصفه الأسفل في هيئة ثعبان.

كان على صلة وثيقة بمصر مقادير وفيرة من القمح من مصر إلى أثينا، فنصب الآثينيون هذا المنعم الذي لاقوا الخير على يديه ملكا عليهم، ولما ولي الملك أدخل طقوس عبادة ديميتير DEMETER في إلبوسيس ELEUSIS واستحدث طريقتها الصوفية ناقلا مراسم هذه الطرق من مصر. وقد تواتر القول بأن ديميتير قد تجلت في أثينا في ذلك العهد على زعم أن الحبوب التي سميت باسمها قد أدخلت حينذاك. وقد ظن الناس أن ديميتير اكتشف في ذاك الحين البذور كما اكتشفت أول الأمر. أما الآثينيون فيقررون من ناحيتهم بأنه لما أتى الجفاف على غلتهم في الحقول في عهد إرخثيوس، وقعت ظاهرة تجلى ديميتير بينهم مقترنة بنعمة نضوج القمح، ويضيفون إلى ذلك أن طقوس عبادة هذه الإلهة وطرقها الصوفية قد أدخلت في إلبوتيس في ذلك العهد، وأن الآثينيين والمصريين يتشابهون في كيفية تقرب الضحايا والقيام بمراسم العبادة التقليدية. ويقولون كذلك أن اليومولبيدای EUMOLPIDAE من سلالة كهنة مصر، وأن الكيروكيس CERYCES<sup>(١)</sup> من سلالة حملة النواويس، وأن الآثينيين وحدهم من بين سائر اليونانيين يحلقون بإيزيس وهم أشبه ما يكونون بالمصريين في أفكارهم وعاداتهم، ويأتي المصريون بكثير مما شاكل ذلك من البراهين التي تقوم فيما أرى على النخوة القومية لا على أساس من الحقيقة، وذلك ليدعموا دعواهم القائلة بأن أثينا مستعمرة مصرية، يغيرهم بذلك بعد صيت هذه المدينة. وبالجملة فالمصريون

(١)اليومولبيدای أي سلالة يومولبوس، والكيروكيس أي السفراء، عائلتان من الأشراف في أثينا وكل إليهما الإشراف على أمور الدين.

يَدْعُونَ أَنْ أَسْلَافَهُمْ قَدْ أَنْفَذُوا جَالِيَّاتٍ عَدِيدَةً إِلَى كَثِيرٍ مِنْ بَقَاعِ الْمَعْمُورَةِ وَقَدْ كَانَ مَنشَأُ هَذِهِ الدَّعْوَى سَبْبِيْنَ: رَفْعَةُ شَأْنِ مَلُوكِهِمْ، وَكَثْرَةُ عَدَدِ سَكَانِ الْبِلَادِ. وَحَيْثُ إِنَّهُمْ لَا يَقِيْمُونَ حِجَّةَ دَامِغَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ هَذِهِ، وَلَا يَشْهَدُ مُؤَرِّخٌ ثَقَّةٌ بِصِحَّتِهَا، أَرَى أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ لَيْسَتْ جَدِيدَةً بِالتَّسْجِيلِ. وَلَنَكْتَفِ بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْ أَسَاطِيرِ الْمَصْرِيِّينَ بِشَأْنِ آلِهِتِهِمْ، حَرَصًا مِنْ عَلَى تَنَاسُقِ أَجْزَاءِ قِصَّتِنَا، وَسَنَحَاوُلُ أَنْ نُوْرِدَ بِإِخْتِصَارٍ فِيمَا يَلِي وَصْفَ أَرْضِ مِصْرَ وَنِيلِهَا وَسَائِرِ مَا هُوَ أَهْلٌ لِلذِّكْرِ فِيهَا.

٣٥ تمتد مصر بوجه عام من الشمال إلى الجنوب وقد عرفت بأنها تفوق سائر الأقطار كثيراً، لحسن موقعها وجمال مناظرها، وتحميمها من ناحية الغرب الصحراء الليبية، التي تموج بالحيوانات المفترسة وتمتد إلى مسافات شاسعة. ولقد كانت قلة مياهها وندرتها وجود جميع أنواع الغذاء فيها سبباً في أن اجتيازها لم يكن مضمناً فحسب، بل خطراً جداً أيضاً. أما من ناحية الجنوب، فتحميمها شلالات النيل والجبال المتصلة بها. إذ من المتعذر الملاحة في النهر أو سلوك الطريق البري من بلاد التروجوديتيس<sup>(١)</sup> TROGODYTES في أقاصي بلاد الحبشة وهي مسافة ٥٥٠٠ ستاد، إلا إذا كان المرء مزوداً بعتاد ملكي أو ركب بالغ الفخامة. أما المناطق التي تقع في الجبهة الشرقية فيحمي بعضها النهر، وتحيط بالبعض الآخر الصحراء، والأرض ذات المستنقعات التي تسمى «الجب» BARATHRA ذلك بأنه توجد فيما بين جوف

(١) تروجوديتيس أي سكان الكهوف وقد عرفهم سترابون ١، ٢، ٣٤ بقوله «قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلي مصر والحبشة».

سوريا (غور سوريا) ومصر بحيرة ضيقة جداً ولكنها عميقة وطولها حوالي ٢٠٠ ستاد تدعى بحيرة سربونيس<sup>(١)</sup> SERBONIS يمكن فيها الخطر لكل من يجوب هذه المنطقة دون سابق معرفة بها، فعرض الماء فيها ضئيل كالشريط، وتحيط بها الكثبان الرملية من جميع الجهات. وعندما يطردهبوب الرياح الجنوبية، تغطي سطح الماء بكميات كبيرة من الرمال، وهذه تخفى تحتها سطح الماء وتجعل شكل البحيرة مشابهاً للأرض اليابسة المحيطة بها، بحيث لا يمكن تمييزها مطلقاً. ولذلك باد الكثيرون من غير العارفين بطبيعة هذا الأقليم، مع جيوش بأسرها، كلما حادوا عن الطريق المطروقة، ذلك أن الرمال حينما يسير عليها الناس، تنهار من تحتهم بالتدريج وتخدع عابرها في شئء من المكر السيء، حتى إذا ما استشعروا الخطر المحقق، أخذوا في شد أزر بعضهم ولات ساعة نكوص أو هرب. فكل من تقننصه هذه اللجة لا يستطيع العوم لأن الوحل يعوق حركة الجسم، ولا هو بمستطيع أن يخوض فيها وليس لقدميه منها متكأ ركين، فالرمال كما ترى قد امتزجت بالماء، وأخذ كل من طبيعة الآخر، وهكذا أصبحت هذه المنطقة غير صالحة للسير أو الملاحة. ولذلك فكل من يرتاد هذه البقعة يهبط إلى أعماقها ولا يجد ما يتشبث به ليعينه على النجاة، لأن الرمال على الحواف تنهار بمن يتعلق بها، وقد أطلق على هذه السهول اسم مناسب لطبيعتها التي وصفنا، إذ سميت «الجب».

(١) تسمى الآن بردويل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذي مات فيها في الحروب الصليبية سنة ١١١٨.

٣٩ الآن وقد وصفنا المناطق الثلاث التي تحمي مصر من البر، بقي أن نضيف إليها وصف الجهة الباقية فالجهة الرابعة التي يلاطمها الموج على طول الساحل كله تقريباً دون مرفأ ما يحميها «البحر المصرى»<sup>(١)</sup> إذ الملاحة على طول هذا الشاطيء طويلة مضنية، والرسو عليه متعذر للغاية. فلا يوجد فيما بين برايتونيوم PARAETONIUM في ليبيا وايوبى IOPE<sup>(٢)</sup> في فلسطين وهي مسافة بحذاء الشاطيء طولها حوالي ٥٠٠٠ ستاد تقريباً، ميناء واحد صالح لرسو السفن سوى ميناء فاروس PHAROS وبغض النظر عن هذه الاعتبارات، فإن شريطاً من الرمل يمتد على طول الساحل المصرى لا يمكن رؤيته لغير الملاح المحنك. ولذلك نرى المسافرين الذين يتوهمون أنهم قد نجوا من أخطار البحر ويندفعون نحو الشاطيء في غفلتهم متهللين يجدون سفينتهم وقد ارتطمت ياليابسة بغتة فتحطمت ويفجعون فيها. ويحدث أحيانا ألا يستطيع بعض الملاحين تمييز هذا الشاطيء الواطيء فتتحطم السفينة على غرة منهم، إما في منطقة مستنقعات ذات برك آسنة، وإما على بقعة جرداء.

فمصر إذن محصنة تحصيناً طبيعياً من جميع الجهات كما أسلفنا القول، وهي مستطيلة الشكل، طول شاطئها ٢٠٠٠ ستاد وتمتد من الداخل حوالي ٦٠٠٠ ستاد، وقديماً كانت تبرز سائر أرجاء المعمورة جداً في كثافة السكان، أما في عصرنا هذا فالشائع أنها لا تقصر عن أيها في

(١) يعنى البحر المتوسط في المنطقة التي يلامس فيها شواطئ مصر

(٢) هي يافا الآن.

هذا المضمار. وكان فيها في العصر القديم ما يزيد على ١٨٠٠٠ مدينة وقرية ذات شأن كما ثبت في الوثائق المقدسة، أما في عصر بطليموس بن لاجوس<sup>(١)</sup> فقد عدَّ منها أكثر من ٣٠٠٠٠<sup>(٢)</sup> ما زال أكثرها مزدهراً إلى وقتنا هذا.

ويقال إن تعداد السكان في العصر القديم كان حوالي ٧ مليون نفساً وهو لا يقل عن ذلك في أيامنا هذه. ويرجع الفضل إذن إلى كثرة الأيدي العاملة فيما يحكي من أن الملوك القدماء قد ابتنوا منشآت عظيمة باهرة قامت شاهداً خالداً على مجدهم. وسنورد بعد قليل وصفاً دقيقاً لها، أما الآن فسنتكلم عن طبيعة نهر النيل ومميزات البلاد الطبيعية.

**٣٢** يجرى النيل من الجنوب إلى الشمال، وينبع من بقعة لم ترها عينان، لأنها في أقاصى الحبشة في منطقة لا يمكن لشدة حرارتها أن تطأها قدمان. وهو أكبر الأنهار قاطبة، وينحني انحناءات شديدة في طريقه مخترقاً هذه الرقعة الطويلة من الأرض. فينحرف مرة ناحية بلاد العرب شرقاً، ومرة ناحية ليبيا غرباً، وطول مجراه من جبال الحبشة إلى مصبه في البحر بما في ذلك منحنياته حوالي ١٢٠٠٠ ستاد. ويصغر حجم حوض النهر الجنوبي باطراد لانسحاب الماء إلى كلتا القارتين<sup>(٣)</sup>، ويتفرع عن النهر فروع عديدة يتجه بعضها نحو ليبيا

(١) هو بطليموس الأول، حكم مصر من سنة ٣٢٣-٢٨٥ ق.م، وقد زار مصر في عهده المؤرخ هيكاتيوس، فلعل ديودور قد نقل عنه ما أثبت من إحصاءات.

(٢) قال هيروdot ٢، ١٧٧ إن عدد المدن المصرية في عهد أمازيس (القرن السادس ق.م) كان عشرين ألف مدينة. فلعل ديودور قد أضاف إليها القرى الشهيرة.

(٣) كان الجغرافيون المتقدمون يجعلون من النيل الحد الفاصل بين آسيا وأفريقية.

هذه تتشربها الرمال البعيدة الغور، ويجرى البعض الآخر في الناحية المضادة نحو بلاد العرب، وهذه تتحول إلى مستنقعات واسعة وبحيرات عظيمة تعيش حولها قبائل عديدة. ويكون عرض النهر عندما يدخل البلاد المصرية ١٠ ستاد، ويكون أحياناً أقل من ذلك عرضاً. ولا يجري في طريق مستقيمة، بل ينحني شتى الانحناءات، فينحرف ساعة نحو الشرق، وساعة نحو الغرب، وأحياناً ينكفي، نحو الجنوب في اتجاه مضاد لاتجاه مجراه الأصلي تماماً. ذلك أن المرتفعات تمتد على جانبي النهر، وتغطي جزءاً كبيراً من ضفتيه، وتتخللها ممرات ووديان صخرية ضيقة. فعندما يصطدم النهر بهذه المرتفعات، ينكفي بسرعة إلى الورا في الأرض المنبسطة، وبعد أن يجري شوطاً طويلاً إلى الجنوب، يعود ثانية إلى مجراه الأصلي. ولقد كانت هذه المميزات التي ينفرد بها النيل دون سائر الأنهار سبباً في أنه النهر الوحيد الذي ينساب في مجراه دونما عنف أو موج دافق، اللهم إلا في المنطقة التي تسمى الشلالات. ففي هذه المنطقة - وطولها حوالي عشرة ستاد- ينحدر النهر انحداراً شديداً، وتحده من الجانبين صخور عالية تجعل منه برزخاً ضيقاً، وهي مليئة بالفتوات والشقوق، وفيها كثير من الصخور، وتدفعه هذه العوائق بشدة إلى الورا في اتجاه مضاد لاتجاهه الأصلي، فتكون في النهر دوامات كبيرة، يمتليء مركزها بالزبد، وهي نتيجة اندفاع الماء إلى الورا. وتلقى هذه الدوامات في قلوب مرتادي هذه البقاع روعة بالغة. والواقع أن تيار النهر سريع وقوى إلى حد أنه يبدو كالسهم المنطلق. وفي أثناء الفيضان حيثما تختفي هذه الصخور تحت سطح الماء، ويغمر فيض المياة الزاخر

كل هذه المنطقة الصخرية، ينحدر بعض الملاحين على الشلالات عندما تهب الرياح مضادة لهم. ولكن لا يمكن لأحد أن يصعد في النهر عبر الشلالات لأن قوة تدفق الماء تعلو على كل مجهود إنسانى. وهناك شلالات أخرى كثيرة ولكن أكبرها ما يقع على الحدود بين الحبشة ومصر.

ويضم النيل بين مياهه أيضاً جزءاً عديدة، كثير منها فى الحبشة، إحداهما عظيمة الاتساع، وتسمى مروى meroe، فيها مدينة شهيرة تسمى باسم الجزيرة، وقد انشأها قميميز وأطلق عليها اسم أمه مروى meroe، وشكل هذه الجزيرة فيما يقال مثل الدرع الطويلة، وتفوق سائر جزائر هذه البقاع حجماً بكثير، فطولها ٣٠٠٠ ستاد، وعرضها ١٠٠٠ ستاد. وبها كثير من المدن أشهرها مروى. وتجم كئبان رملية ممتلئة على طول ساحل الجزيرة المواجه لليبيا الذى تتكسر عليه أمواج النهر، أما الساحل المواجه لبلاد العرب فتعلوه صخور عاتية. وبالجزيرة مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس، هذا إلى كميات وفيرة من الخشب الأبنوس وشتى أنواع الأحجار الكريمة. وبالجملة، فالنهر يكون جزراً كثيرة إلى حد يشكك السامع فى صدق ما يروى عن عددها. فبغض النظر عن الأرض التى يحيط بها النيل فى المنطقة التى تسمى «الدلتا» يوجد أكثر من سبعمائة جزيرة يفلح بعضها الأحباش والنسائيس وسائر أنواع الحيوان، فهى لذلك غير صالحة لسكنى الإنسان.

وعندما يتفرع النيل فى مجراه فى مصر إلى فروع كثيرة يكون المنطقة التى تسمى نسبة إلى شكلها «بالدلتا» (المثلث)، أما ضلعاها فالفرعان المتطرفان، بينما يكون قاعدته البحر الذى يبتلع مياه النهر من

مصباته العديدة. فالنيل يصب في البحر من فروع سبعة، أولها من الشرق الفرع البيلوزى والثانى التانيتى ثم المنديسى ثم الفاتنيتى ثم السبئيتى، ثم البولبيتى وأخيراً الفرع الكانوبى ويسميه البعض الفرع الهرقلى<sup>(١)</sup>. وهناك مصبات أخرى صناعية ولكن ليس بنا من حاجة إلى ذكرها. وتقوم على رأس كل من هذه المصبات مدينة مسورة يشطرها النهر شطرين، وتمتد منها على جانبي المصب قنطرتان، وقلاع فى مواقع صالحة.

وتخرج من الفرع البيلوزى قناة صناعية تصل إلى الخليج العربى والبحر الأحمر، وأول من قام بهذا العمل نيخو<sup>(٢)</sup> بن بسماتيك، ثم تلاه دارا الفارس الذى سار فى هذا المشروع شوطاً بعيداً ثم تركه ولم يتمه، فقد حذره بعضهم بأنه إذا أتم حفر القناة إلى الخليج فإنه يكون سبباً فى إغراق مصر، فقد أوهموه أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح مصر<sup>(٣)</sup>. وقد أتم بطليموس حفر القناة فى عصر متأخر، وأقام عليها فى أكثر المواضع صلاحية هويساً فريداً فى نوعه، يفتحه كلما أراد المرور ثم يغلقه بعد ذلك مباشرة، وقد تمت هذه العملية بنجاح. ويسمى

(١) سُمى هيرودوت ٣، ١٧، الفرع التانىسى بالفرع السايسى والفرع الفاتنيتى بالفرع البوكولى، وقد يكون هذا هو فرع دمياط الآن. أما الفرع البولبيتى فهو فرع رشيد.

(٢) حكم نيخو مصر من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٥٩٣ ق.م. وحكمها دارا من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م.

(٣) هذه القناة وهى قناة السويس، تتفرع على النيل شمال بوباسطيس ثم تسير فى وادى الطميلات إلى البحيرات المرة، ثم تنحدر إلى الجنوب وتتصل بالبحر الأحمر. ويرى فريق من المؤرخين أنها ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة.

فرع النهر الذى ينساب فى هذه القناة باسم حافرها بطليموس وتقع على رأسها مدينة تدعى أرسنوى arsinoe.

٣٤ وتشبه الدلتا جزيرة صقلية فى الشكل، وطول كل من ضلعيها ٧٥٠ ستاد وقاعدتها التى يحف بها البحر طولها ١٣٠٠ ستاد، ويخترقها كثير من القنوات الصناعية، وهى تشمل أخصب أراضي مصر. لما كانت تربتها طميية وسهلة الري، فهى تنتج محصولات وفيرة من جميع الأصناف. فالنهر يلقي عليها فى فيضانه السنوى بغرين جديد، ويسهل على سكانها رى مساحتها كلها بوساطة الاختراع الذى استحدثه أرخميديس السيراكيوزى، ويسمى نسبة إلى شكله بالحلزون<sup>(١)</sup>

ولما كان تيار النيل هيناً، وكان النهر يحمل مقداراً كبيراً من جميع أنواع التربة، ويجعل من الأراضي الواطئة بركاً، فقد تكونت بذلك مستنقعات شديدة الخصوبة تنمو فيها النباتات ذات السيقان المختلفة الطعم، والفاكهة والخضروات التى لا تنمو فى غير هذه البلاد. وكلها ينمو بكثرة تسد حاجة المعوز والمريض. وهى لا تمدهم بغذاء مختلف الألوان دانى القطوف وافر لكل من يحتاج إليه فحسب، بل يقوم عليها كذلك غير قليل من ضرورات الحياة. فالبشنيين مثلاً، الذى ينمو فيها بكثرة، يصنع منه المصريون خبزهم الذى يقيمون به أودهم. وينمو فيها كذلك القيبوريوم<sup>(٢)</sup> بوفرة، وهو يثمر الحبوب المعروفة بالباقلى القبطى.

(١) يعنى الطنبور.

(٢) القيبوريوم ثمرة الباقلى القبطى nymphaea nelumbo

وفيهما كذلك أنواع أخرى كثيرة من الأشجار، منها «الفارسية»<sup>(١)</sup> التي استوردها الفرس من الحبشة عندما غزاها قمبيز وفاكهتها حلوة المذاق جداً. أما شجر الجميز فيثمر نوع منه التوت، ويثمر نوع آخر فاكهة تشبه التين، وهذه مثمرة على مدار السنة، ويوجد فيها الفقراء ملاذاً سهلاً من عوزهم. أما الفاكهة المسماة بالتوت البري فتقطف أيام التحاريق، وهم يتخذونها عُقبَةً للذيذ مذاقها. ويستخرج المصريون من الشعير شراًباً لا يقل عن النبيذ نكهة، يسمونه (زيثوس zythos جعة). ولا يستخدمون في إيقاد مصابيحهم زيت الزيتون، بل زيتاً مستخرجاً من نبات يسمى كيكى kiki (زيت الخروع)، وينمو في مصر بوفرة كثير من النباتات الأخرى التي تفي بحاجات الإنسان الضرورية، ولكن يطول بنا القول لو تحدثنا عنها.

**٢٥** وهناك نوعان متميزان عن سائر الحيوانات الغريبة الشكل التي تعيش في النيل، هما التمساح وفرس البحر. أما التمساح فبعد أن يكون صغيراً جداً يكبر إلى أن يصبح ضخماً للغاية. فيبيضته في حجم بيض الأوز وبعد أن يفقس يكبر إلى أن يبلغ طول التمساح ست عشرة ذراعاً. وهو يعمر كالإنسان، وليس له لسان<sup>(٢)</sup>. وقد عملت الطبيعة على حماية جسمه بمهارة فائقة، فجسمه كله مكسو بقشر شديد الصلابة، وزود فكاه بأسنان عديدة، وله نابان أكبر حجماً بكثير من الأسنان. ولا يأكل لحم الإنسان فحسب، بل لحم كل ما يقرب النهر من دواب

(١) شجرة اللبخ.

(٢) للتمساح لسان صغير جداً.

الأرض. وهو قوى العضة، ويصيب بجراح بالغة إذا أنشب مخالفه، ولا يمكن مداواة الجسم فى موضع عضته. وكان المصريون يصيدونه فى غابر الأزمان بالشص وقد علقت بها قطعة من لحم الخنزير. ولكنهم عدلوا عنها من قديم الزمن إلى الشباك المتينة يصيدونه بها كما يصيدون بعض أنواع الأسماك. ويصيدونها أحياناً من قواربهم بسهام حديدية يوالون إطلاقها على رؤوسها. وهناك عدد لا يحصى من التماسيح فى النهر وفى البحيرات المتاخمة له إذ أنها كثيرة التوالد وقلما يقتلها الناس، والعرف الذى جرى عليه أكثر أهل البلاد هو أن يعبدوا التمساح كإله، وحيث إن لحمه لا يؤكل فإن صيده عديم الجدوى تماماً للأجانب. ولما كان فى تكاثره ضرر بالإنسان، فقد جاءت الطبيعة بعلاج ناجع فى ذلك، فالحيوان الذى يسمونه إخنيمون (النمس) ichneumon يروح مهشماً البيض الذى يضعه التمساح على حافة النهر، ومما يدعو إلى أشد العجب، أن النمس، وهو لا يأكل هذا البيض ولا يستفيد منه فى أى وجه، يتأثر على أداء هذه الخدمة الطبيعية والضرورية لخير الإنسان.

أما الحيوان المسمى «بفرس النهر» فلا يقل طوله عن خمس أذرع، وله حوافر مشقوقة كحوافر الثور، وله ثلاثة أنياب على كلا الجانبين وهى أكبر من أنياب الخنزير البرى، أما أذناه وذيله فتشبه آذان الخيول وذيلها وصوته يحاكي سهيل الفرس، ويمائل جسمه بوجه عام جسم الفيل، وجلده أخشن من جلود سائر الحيوان. ولما كان البحر حيواناً بحرياً وبرياً على السواء، وهو يقضى نهاره فى الماء غائصاً فى أعماقه، أما الليل فيقضىه على الأرض، يرعى القمح والتبن، فلو أنه كان كثير

التوالد، يلد كل عام، لأتى على حقول مصر كلها. ويجتمع لصيده جمهرة من الرجال، يقذفونه بحراب حديدية. فعندما تقع عليه أعينهم، يلتفون حوله بقواربههم ويصيبونه بجروح عديدة بآلة حادة كالأزميل مثبتة فى حربة حديدية. ثم يربطون أحد هذه الحراب المغروسة فى جسمه بطرف حبل، ثم يرخون له من الحبل وينتظرون إلى أن تنهك قواه لكثرة ما ينزف من دم. ولحمه خشن عسر الهضم، وليس من أعضائه الداخلية ما يؤكل، سواء فى ذلك الأحشاء<sup>(١)</sup> والمصارين.

**٣٦** وفى النيل بجانب ما ذكرنا من حيوان أعداد لا تحصى من مختلف أنواع الأسماك، فهو لا يمد السكان بكميات وفيرة من الأسماك الطازجة فحسب، بل لهم منه معين لا ينضب للتعليح، وبالجملة، يفوق النيل سائر أنهار العالم منفعته للإنسان. فهو يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى ويظل فى زيادة مطردة إلى زمن الاعتدال الخريفى ويجلب الطمي الحديث طوال هذه الفترة، ليخصب الأرض البور، وحقول الحبوب، وبساتين الأشجار زمنا يتوقف طوله على مشيئة الزراع. ذلك أن مياه النهر تنساب بلطف، ففى استطاعتهم أن يوجهوها إلى حقولهم بواسطة سدود منخفضة ثم يخلون لها السبيل بسهولة بقطع هذه السدود كلما عنت لهم فى ذلك فائدة. وفى الحق جعل النيل الزراعة سهلة ميسرة إلى حد أن الفلاحين يستريحون من عملهم فى انتظار جفاف الأرض، وبعد بذر الحب يستخدمون ماشيتهم فى غرسه فى الأرض، ثم يعودون إلى الأرض بعد أربعة أو خمسة أشهر للحصاد. ويستعمل بعض

(١) يعنى بالأحشاء القلب والكبد والرئتين والكليتين.

الزراع محارِث خفيفة لحرث أديم الأرض بعد ربيها، وبعد ما يجمعون حصادهم أكداسا بقليل من النفقات والمشقة. فعند سائر الشعوب تحتاج جميع الأعمال الزراعية على العموم إلى مشقة كبيرة وتكاليف باهظة، وفي مصر وحدها لا تتطلب هذه الأعمال سوى مجهود تافه وتكاليف ضئيلة. والكروم، وهي تروى بنفس الطريقة، تدر كميات وفيرة من النبيذ أما السكان الذين يتركون الأرض بعد جفافها مرعى لماشيتهم فيجنون ثمار ذلك، لأن الماشية نظرا لخصوبة المرعى مرتين في العام، وتجز أصوافها مرتين كذلك.

وتبدو ظاهرة فيضان النيل غريبة للذين يرونها رأى العين، وهي أمر غير معقول عند من تصلهم عن طريق السماع فحسب. فبينما تبدأ كل أنهار العالم في الهبوط في الانقلاب الصيفي ثم تأخذ في الارتفاع باطراد طوال فترة الصيف التالية، يبدأ نهر النيل وحده في الارتفاع في ذلك الوقت ويزيد يوما بعد يوم إلى أن يغمر في النهاية كل مصر تقريبا. وكذلك يسلك فيما بعد أسلوبا عكسيا فيأخذ في النقصان يوما بعد يوم لمدة تضاهي الفيضان، حتى يعود إلى منسوبه الأصلي. ولما كانت الأرض سهلا مستويا، والمدن والقرى والمسكن الريفية قائمة على تلال صناعية، فإن منظرها حينئذ مشابه لجزر السيكلاديس<sup>(١)</sup>. أما الحيوانات الأرضية المفترسة فيقضى النهر على معظمها ويغرقها بمياهه، وبعضها ينجو بحياته بلجوئه إلى المرتفعات. أما الماشية فتُعلف إبان الفيضان في القرى والمسكن الريفية حيث يخزن لها العلف

(١) مجموعة من الجزائر الصغيرة تحيط بجزيرة ديلوس

من قبل. أما عامة الشعب فتجنح طوال وقت الفيضان - وقد ارتفع عنها عبء العمل - إلى اللهو، فتجعل من أيامها كلها أعيادا وتتمتع ولا حرج بكل أسباب السرو.

ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من الأهمية حافزا للملوك إلى إقامة «مقياس النيل» في منف، وعهد في إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط، وينفذون الرسائل إلى المدن يبلغون الناس فيها بمقدار ارتفاع النهر بالأذرع، وميقات انخفاضه بالضبط. وحينما يعلم الشعب بهذه الطريقة أن النهر توقف عن الارتفاع، وأخذ في الهبوط، يذهب عنه انزعاجه، ويعرف سلفا مقدار المحصول القادم بالضبط، ذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم في ذلك الأمر مدى حقب طويلة.

ولما كان فيضان النيل ظاهرة مستعصية التفسير، فقد أخذ الكثيرون من الفلاسفة والمؤرخين على عاتقهم مهمة تحليلها، وسأحدث عن ذلك باختصار، فلا نستطرد استطرادا طويلا، ولا نهمل إثبات أمر يتوق الناس كلهم إلى معرفته. وبالجملة فمشكلات فيضان النيل، ومنابعه وصبه في البحر، وسائر هذه المميزات التي انفرد بها النيل - أكبر أنهار المعمورة - عن بقية الأنهر، قد تركها بعض المؤرخون دون أن يجروا على أن يقطعوا فيها برأى، في حين أنهم يسترسلون أحيانا في القول عن بعض الأمطار الشتوية. وانبرى البعض الآخر للتحديث عن هذه المسائل ولكنهم حادوا كثيرا عن جادة الصواب. فقد لجأ هيلانيكوس

Hecataeus و كاداموس Cadmus مثلاً، وكذلك هيكتاتيوس Hecataeus ومن لف لفهم من الكتاب - وكلهم ينتمون إلى المدرسة القديمة<sup>(١)</sup> - إلى التعليقات الخرافية. أما هيرودوت، وقد كان باحثاً ومدققاً للغاية، وواسع المعرفة بالتاريخ، فقد حاول حقاً تفسير هذه الظاهرة. ولكن نظرياته - كما ثبت الآن - متناقضة. وأحجم كزينوفون Xenophon وثوكيديديس Thucydides اللذان نالا إعجاب الناس لدقة روايتهما عن وصف أرض مصر كلية أما إيفورس Ephorus وثيوبومبوس<sup>(٢)</sup> Theopompus اللذان أوليا هذه المسائل كل عنايتهما، فقد كانا أقل الكتاب إصابة لمحجة الصواب. ولا ترجع خيبة هؤلاء الكتاب أجمعين إلى الإهمال بل إلى خصائص هذه البلاد الفريدة. فمنذ العصور القديمة إلى عهد بطليموس الملقب بفيلادلفوس<sup>(٣)</sup>، لم تطأ قدم يوناني واحد بلاد الحبشة، بل لم يبلغ أحد منهم حدود مصر الجنوبية، فكل هذه المناطق لم تكن معروفة للأجانب وكانت خطره للغاية. والملك السالف الذكر هو أول من أرسل

(١) المدرسة القديمة هي طبقة الكتاب الذين عنوا بكتابة التاريخ نثراً وقد أولوا الأساطير اهتماماً كبيراً ولم يكن لهم نصيب كبير من ملكة النقد. هيلانيكوس المتلييني ولد سنة ٤٨٠ وعاش حوالي ٨٥ سنة، وهو أول من قوم تاريخ بلاد اليونان. كاداموس الملطي لا يعرف عنه شيء على وجه التحقيق. هيكتاتيوس الملطي ولد سنة ٥٥٠ ق.م وزار مصر حوالي عام ٥٢٦ ق.م وقد ألف كتابين أحدهما في وصف العالم، والآخر في الأساطير اليونانية ومات حوالي سنة ٤٧٦ ق.م

(٢) ثيوبومبوس ألف كتاباً في تاريخ اليونان أكمل به تاريخ ثوكيديديس إلى عام ٣٩٤ ق.م وكتاباً في تاريخ فيليب المقدوني.

(٣) هو بطليموس الثاني حكم مصر من سنة ٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م تزوج بأخته أرسنوى وسعى بعد موته فيلادلفوس أي « المحب لأخته ».

جيشاً من اليونانيين لغزو بلاد الحبشة، ومنذ ذلك الحين تصلنا معلومات أكثر دقة عن هذه البلاد.

هذه إذن أسباب جهل المؤرخين المتقدمين. أما عن منابع النيل، والمنطقة التي ينبثق منها النهر، فلم يدع أحد حتى كتابة هذه السطور رؤيتها، ولم يورد أحد وصفاً لها عن لسان قوم ادعوا رؤيتها. وهكذا ما برحت هذه المسألة مجالاً للتخمين والتكهن. ويذهب كهنة المصريين إلى أن النيل يستمد مياهه من الأوقيانوس الذي يحيط بالمعمورة، ولكن لا نصيب لقولهم هذا من الصحة. فهم يحلون مشكلة بمشكلة أخرى، ويزجون بمثابة برهان حجة تفتقر في ذاتها إلى برهان دامغ. وتقول طائفة من التروجوديتيس Trogodytes وهي التي نزحت من المنطقة الداخلية لشدة حرارتها وتسمى قبيلة البولوجيين Bolgii، أن هناك من الظواهر ما يشير إلى أن أنهاراً كثيرة تلتقى في مكان واحد وتكون مجرى النيل، وأن هذا هو السبب في أنه أكثر الأنهار المعروفة إخصاباً. وبميل المرء إلى الركون إلى قول سكان الجزيرة المعروفة بمروي Meroe لأنهم أبعد ما يكونون عن التماس علي تناسب ما يتصورون من فروض، ولأنهم كذلك أقرب الناس إلى هذه المنطقة موضوع بحثنا. ولكنهم فضلا عن أنهم لا يقطعون برأى في هذه المسائل، سمو النهر أستابوس Astpus ومعناها في اليونانية «مياه من الظلام»، مطلقين عليه اسماً يتفق مع ما يعوزهم من دقة وملاحظة هذه البقاع وشدة جهلهم بها. والرأى عندنا أن أقرب التعليقات إلى الحقيقة أبعدها عن التكهنات.

ولست بجاهل أن هيروdot<sup>(١)</sup> في تفرقة بين ليبيا التي تقع إلى الشرق من النهر وليبيا التي تقع في غربه، عزا إلى القبائل الليبية المعروفة بالنسامونيين Nasamones<sup>(٢)</sup> البحث عن مصدر النهر، وقال إن النيل ينبع من إحدى البحيرات ثم يسير مسافة طويلة جداً في الأرض الحبشية، ولكن لا يمكن أن نثق لأول وهلة بقول الليبيين، ولا كان ما قاله صدقاً، ولا بقول مؤرخ تفتقر روايته إلى برهان.

والأن بعد أن تكلمنا عن منابع النهر ومجرده، سنحاول أن نورد أسباب فيضانه. يقول طاليس<sup>(٣)</sup> Thales، وهو أحد الحكماء السبعة، إن الرياح التجارية تهب في اتجاه مضاد لمصب النهر، فتمنعه من أن يصب في البحر، وإن هذا هو السبب في ارتفاع النهر، وفيضانه على أرض مصر وهي سهل منخفض. ولكن، بالرغم من وجهة هذا التفسير، فمن السهل إظهار بطلانه، فلو أن هذا التعليل كان صحيحاً لفاضت للأسباب عينها كل الأنهار التي تواجه الرياح التجارية مصباتها. وحيث إن هذا لا يحدث في أي جزء من المعمورة، فيجب أن نولي وجهنا ناحية أخرى بحثاً وراء السبب الحقيقي للفيضان. ويذهب الفيلسوف الطبيعي أناكساجوراس Anaxagoras إلى أن سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج في الحبشة، وقد شايعه في رأيه هذا تلميذه الشاعر يوريبديدس Euripides حيث يقول:

(١) هيروdot ٢، ٣٢.

(٢) قبائل رحل تعيش حول خليج سدرة في شمال أفريقية.

(٣) طاليس الفيلسوف اليوناني عاش في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

« لقد هجر أطيب أمواه الأرض  
 « النيل الذى ينبثق فائضاً  
 من أرض الأحباش ذوى البشرة السوداء  
 « كلما ذابت الثلوج..

والواقع أن هذا التفسير لا يحتاج إلى كبير عناء لتنفيذه، فمن الجلى أن سقوط الثلوج فى الحبشة أمر مستحيل لشدة الحرارة هناك. وعلى العموم، فليس فى هذه البقاع جليد أو برد أو أى علامة من علامات الشتاء وخصوصاً فى وقت فيضان النيل. وحتى إذا سلمنا بأن هناك ثلوجاً متراكمة، فالدليل ما زال قائماً على بطلان هذا التعليل، إذ من المسلم به أن كل الأنهار التى تصدر عن ذوبان الثلوج تثير تيارات باردة من الهواء، وتكوّن ضباباً، هو النهر الوحيد الذى لا تعلوه الغيوم الكثيفة، ولا الرياح الباردة ولا الضباب.

أما هيرودوت<sup>(١)</sup> فيقول إن منسوب النيل الطبيعى هو ذلك الذى يبلغه أيام الفيضان. ولكن يحدث فى الشتاء أن الشمس عندما تسامت الصحراء الليبية، تبخر كثيراً من مياه النهر فيقل ارتفاعه عن منسوبه الطبيعى. وعندما يأتى الصيف، وتنتقل الشمس فى مدارها إلى الشمال، تجف وتقلل مياه أنهار بلاد اليونان وسائر الأقطار التى تناظرها موقعاً<sup>(٢)</sup> وإذن فظاهرة فيضان النيل فى رأيه لاتدعو إلى العجب، لأن النهر لا يرتفع فى حرارة الصيف، بل ينخفض فى الشتاء للسبب المتقدم.

(١) هيرودوت ٢، ٢٥.

(٢) أى التى تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه بلاد اليونان.

وينبغي لنا الآن أن نقول رداً على هيرودوت أنه كما أن الشمس تبخر في الشتاء مياه النيل، يتحتم أن تبخر مياه أنهار ليبيا كذلك، وتخفص من منسوبها. ولما كانت هذه الظاهرة لا تلاحظ في أى مكان في ليبيا، فمن الجلى إذن أن مؤرخنا يلقي الكلام على عواهنه، هذا إلى أن فيضان أنهار بلاد اليونان في الشتاء لا يرجع إلى بعد الشمس عنها، بل إلى كثرة هطول الأمطار في هذا الموسم.

**٣٩** يقول ديموقريطس الأبدري<sup>(١)</sup> إن الثلوج لا تكسو المناطق الجنوبية كما يعى يوريبديدس وأناكساجوراس، بل المناطق الشمالية كما هو واضح لكافة الناس. وإن أكداس الثلج المتركمة في الشمال تظل متجمدة إبان الانقلاب الشتائى. أما في الصيف فتفتت الحرارة الثلوج فتصير كله في حالة ذوبان. وهذه تكون سحاباً كثيفاً في المناطق الأكثر ارتفاعاً، حيث يصعد البخار بكثرة، وهذا السحاب تحمله - كما يقول - الرياح التجارية إلى أن يلقى أعلى جبال العالم، وهي جبال الحبشة في زعمه، وهنا حين يصطدم السحاب بقوة بهذه الجبال يسقط أمطاراً غزيرة، وهي التى تسبب في رأيه فيضان النيل، في موسم الرياح التجارية بالضبط.

من السهل دحض هذه النظرية كذلك بمراجعة ميقات الفيضان بالدقة، فالنيل يبدأ فى الأرتفاع فى الانقلاب الصيفى قبل أن تبدأ الرياح التجارية فى هبوبها، ويأخذ فى الانخفاض بعد الاعتدال الخريفى، بعد أن يتوقف هبوب الرياح بكثير. فإذا تحطمت النظرية المعقولة أما

(١) معاصر لسقراط وهو أول من ألف من اليونانيين الموسوعات، وصاحب النظرية الذرية.

الحقائق الدقيقة المستقاة من التجربة، وجب علينا مع اعترافنا بنبوغ الفيلسوف أن نحجم عن الأخذ برأيه. وإنى أذكر حقيقة أخرى تلك هي أن الرياح التجارية كما ترى، تهب من الغرب كما تهب من الشمال ذلك أن ما يسمى بالرياح التجارية ليس الرياح الشمالية فحسب أي البورياس والأباركتياس بل الرياح الشمالية الغربية كذلك التي تهب من موضع غروب الشمس صيفاً<sup>(١)</sup>، وكذلك ما يقرره من أن جبال الحبشة هي في الواقع أعلى جبال العالم، لا يفتقر إلى دليل فحسب، بل هو أيضاً ليس أهلاً لما يجدر بالحقيقة الملموسة من تصديق<sup>(٢)</sup>.

ويتحققنا إيفورس Ephorus بأطرف التفسيرات، ولكنه في سعيه وراء الحجج المقبولة في روايته، يخطئ محجة الصواب كلية. يقول إيفورس إن تربة مصر كلها طميية ومسامية مثل حجر الخفان ملوثة بمسام كبيرة ممتدة، تمتص عن طريقها كميات وفيرة من الماء، وتخزننها طوال فصل الشتاء، أما في فصل الصيف فتفرزها في كل مكان، كجداول من العرق، وهذه تسبب زيادة منسوب النهر. ويبدو لنا أن هذا الكاتب لم يفحص بنفسه طبيعة أرض مصر، ولم يتحر عنها بشئ من الدقة من أولئك الذين خبروا طبيعة هذه البلاد. فأولاً، إذا كان النيل يتلقى زيادته من مصر نفسها فليس هناك إذن ما يدعو إلى فيضانه في مجراه الأعلى حيث ينساب النهر من أرض صخرية جرداء. والواقع من الأمر أن النهر يفيض قبل أن يصل إلى مصر في مجراه الممتد إلى

(١) أي الشمال الغربي

(٢) يعني أنه ليس لدينا دليل ملموس على شدة ارتفاع جبال الحبشة.

أكثر من ستة آلاف استاد من أراضى الحبشة. وثانياً، لو كان قعر النهر أكثر انخفاضاً من مسام التربة الطميية، لبدت المسام إذن على سطح الأرض وأصبح من المتعذر أن تحتفظ بهذه الكميات الكبيرة من الماء في باطنها. أما إذا كان النهر أعلى من مستوى المسام، تعذر تسرب المياه من المستوى المنخفض إلى مياه النهر العالية. وبالجملة، فهل يعقل أن ما تفرزه الأرض من مسامها يمكن أن يزيد من مياه النهر إلى حد أنه يغمر كل مصر تقريباً. وإنى أجاوز قول إيفورس الفاسد عن التربة الطميية والمياه التي تخزن في مسامها فبطلانه بين جلي. ففي آسيا مثلاً قد كون نهر مياندر مساحة كبيرة من التربة الطميية ولكن لم تلاحظ فيما يتصل به من ظاهرات، ظاهرة واحدة تشابه فيضان النيل. وكذلك الحال بالنسبة لنهر أخيلوس في أكرانيا ونهر كيفيسوس في بيوشيا الذي ينبع من فوكيس، فإن كليهما كونا مساحات واسعة من التربة الطميية وهما يقدمان برهاناً قاطعاً على فساد نظرية المؤرخ. وعلى أى حال، فلا ينبغي لأحد أن يطلب الدقة عند إيفورس بعد أن رأينا أنه لا يعاب كثيراً باستقراء الحقيقة في كثير من المسائل.

**مع** وحاول بعض فلاسفة منف أن يأتوا بتفسير لظاهرة الفيضان، فجاء تفسيرهم غير معقول بالرغم من تعذر دحضه، وقد أخذ به الكثيرون. فهم يقسمون الأرض إلى ثلاث مناطق، إحداها تكون عالماً المسكون هذا، والثانية تكون فيها الفصول بعكس ما تكون عندنا تماماً، أما الثالثة وتقع بين الاثنتين فلا يسكنها الناس لشدة حرارتها. فلو أن النيل يفيض في الشتاء لكان من الجلي أنه يتلقى هذه المياه الزائدة من

المنطقة التي نعيش فيها لأن الأمطار الغزيرة تسقط عندنا في هذا الفصل على الخصوص. ولكن فيضان النهر، على العكس من ذلك، يكون في فصل الصيف، فمن المرجح إذن أن أعاصير الشتاء تتجمع في المنطقة المقابلة (الجنوبية) وينساب ما يزيد من مياه هذه المنطقة البعيدة إلى عالمنا هذا، وهذا فيما يقولون هو السبب في أنه ما من أحد استطاع أن يصل إلى منبع النيل لأنه ينساب في المنطقة المقابلة لنا، ثم يجري إلينا عن طريق المنطقة غير المكونة. ولقد اتخذوا من فرط عذوبة مياه النيل شاهداً على صحة دعواهم، لأن ماء النهر يلطف في مجراه في المنطقة الحارة بتأثير الحرارة، وهكذا كان النيل أعذب الأنهار جميعاً، إذ من الطبيعي أن الحرارة تلطف جميع السوائل.

وهناك حجة قريبة لدحض هذا الوهم، فمن الجلي أنه من غير المعقول أن ينساب نهر مصعداً في عالمنا المعمور هذا، من المنطقة المعمورة المقابلة لنا، خصوصاً إذا أخذنا بنظرية أن الأرض كروية الشكل. وحتى إذا تعسف المرء في استدلالته، وضرب بالحقيقة السافرة عرض الأفق، ما أفسحت طبائع الأشياء عن الطريق لهذه النظرية. وبالجملة، فإنهم يتوهمون أنه بوضعهم العالم الخلاء بين المنطقتين المعمورتين، قد أتوا بنظرية لا تقبل التجريح، إذ أبعدا بينها وبين البحث التجريبي الدقيق. ولكن ينبغي لمن يتعسف في نظرياته في بعض المسائل أن يأتي بالدليل عليها من الحقيقة الواقعة، أو يقيم وبراهينه على فروض تدعو إلى التصديق لأول وهلة. فكيف تأتي لنهر النيل أن يكون النهر الوحيد

الذى يجرى من ذلك العالم المعمور المقابل إلى عالمنا؟ فمن المعقول أن يكون هناك أنهار أخرى تماثله كما هو الحال عندنا. هذا إلى أن الأسباب التى يعزون إليها عذوبة مياه النهر سخيفة جداً. فلو أن النهر اكتسب عذوبة مياهه بفعل الحرارة، لما كان كما هو الآن مخصباً يغذى جميع أنواع الأسماك والحيوان. ذلك أن جميع الأمواه التى تتغير طبيعته بتأثير العنصر الحرارى تفقد قدرتها على إنماء الكائنات الحية. وإذن، فحيث إن طبيعة النيل تنقض تماماً نظرية تأثير مياهه بالحرارة فيجب أن نعتبر ما أوردوا من أسباب للفيضان فاسداً.

ويقر أوينوبيديس Oeneopides<sup>(١)</sup> الخيوى أن الماء الجوفى يكون بارداً فى الصيف، أما فى الشتاء فيكون على العكس حاراً كما نرى بوضوح فى ماء الآبار العميقة، ففى منتصف الشتاء يكون ماؤها أبعد ما يكون عن البرودة، أما فى حمارة الصيف فيستنبط منه ماء بارداً جداً. فمن المعقول فى رأيه إذن أن ينخفض النيل فى الشتاء ويقل ماؤه. حيث تستهلك حرارة الأرض أكثر مائه، وليس فى مصر أمطار، أما فى الصيف، وليس هناك من استهلاك للماء فى باطن الأرض فيزيد النهر ماشاء. ونقول فى الرد على هذه النظرية إن كثيراً من أنهار ليبيا التى تناظر نهر النيل فى موقع مصباتها ومجراها، يشابه مجراها، لا تفيض بالرغم من ذلك مثله، بل بالعكس تزيد فى الشتاء وتنخفض فى الصيف، فهى تقدم برهاناً على عبث محاولة خنق الحقيقة بالمنطق المعقول.

(١) فلكى ورياضى عاش فى القرن الخامس ق.م

أما أجاثارخيديس Agatharchides<sup>(١)</sup> الأكنيدى فقد كان أقرب إلى لإصابة الحقيقة من سواه، فهو يقرر أن الأمطار تهطل كل عام على جبال الحبشة مستمرة من الانقلاب الصيفى إلى الاعتدال الخريفى، فمن المعقول إذن أن ينقص النهر فى الشتاء لأنه يستمد مياهه حينئذ من ينابيعه فقط، أما فى الصيف فيزيد بسبب الأمطار التى تتدفق إليه. فإذا لم يكن أحد استطاع إلى وقتنا هذا أن يعلل أسباب سقوط هذه الأمطار فليس ذلك - فيما يقول - بمبرر فى رفض رأيه الشخصى هذا لأن الطبيعة تأتى بكثير من المتناقضات، ومن المتعذر على الإنسان أن يبين أسبابها بدقة ويؤيد نظريته - فيما يعتقد - ما يحدث من ظاهرات فى بعض أصقاع آسيا. فعلى حدود سكيثيا Scythia عند اتصالها بجبال القبح Caucasus يحدث سنوياً - بعد انقضاء فصل الشتاء - أن تنهمر كميات بالغة من الثلوج أياماً كثيرة متتالية، ويحدث فى بعض الفصول أن يسقط البرد على سفوح الهند الشمالية فى حجوم وكميات لا يتصورها العقل. وتهطل الأمطار باستمرار بالقرب من نهر هيداسيبس Hedsapes فى أول فصل الصيف، وبعض أيام قلائل يتكرر الأمر نفسه فى بلاد الحبشة. وهذه العوامل الحيوية التى تحيط دائماً بالمنطقة كلها تسبب المناخ الشتوى هناك، فليس إذن ما يدعو إلى العجب - فى زعمه - من أن الأمطار تهطل باستمرار فوق جبال الحبشة، وهى أكثر ارتفاعاً من مصر، فتنحدر فى فصل الصيف، وتزيد فى مياه النهر، خصوصاً وأن أهل تلك البلاد يؤيدون هذه الحقيقة الواضحة. فبالرغم من أن ما يقررونه

(١) مؤرخ وجغرافى عاش فى القرن الثانى ق.م.

يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحٌ إعصاريةٌ، تسبب في الحبشة جواً صحواً، والرياح الشمالية في أوروبا عاتية، في حين أنها في تلك البلاد بليلة عليلة. والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى رداً على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفي بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادية ذى بدء من حدود الاختصار. ولما كنا قد قسّمنا هذا الكتاب - لطوله - إلى قسمين حرصاً منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسنهني هنا هذا القسم من تاريخنا هذا. وسنورد في الجزء التالي بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة في مصر في أقدم العصور.

## الجزء الثاني

٤٢ إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم - لضخامته - إلى جزئين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين في نشأة الكون، وتكوين العالم في البدء، وفي الآلهة التي أنشأت في مصر مدناً ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم في الأناسى الأول، وفي أسلوب الحياة في العصر القديم، وفي عبادة الآلهة الأزلية، وفي بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التي تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة في ذلك. ويحتوى كذلك على تنفيذ كل آراء المؤرخين والفلاسفة في